# مكفرات الذنوب
## ودرجات الثواب ودعوات الخير


تأليف

شيخ المحدثين في عصره

ابن رجب الحنبلي

المتوفى ٧٩٥ هـ

مكتبة التراث الإسلامي
القاهرة
عبد الله حجاج
ت ٣٥٥٣٨٣٨

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين ، وصلاته وسلامه على محمد خاتم النبيين ، وإمام المتقين ، ورسول رب العالمين ، وعلى ، آله وصحبه والتابعين لهم بإحسان إلى يوم الدين وسلم تسليما كثيراً .

خرج الإمام أحمد رحمه الله تعالى من حديث معاذ بن جبل رضى الله عنه قال : « احتبس عنا رسول الله صلى الله عليه وسلم ذات غداة فى صلاة الصبح حتى كدنا نترائى قرن الشمس ، فخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم سريعاً فثوب بالصلاة وصلى وتجوز فى صلاته ، فلما سلم قال : كما أنتم على مصافكم ثم أقبل إلينا فقال : إنى سأحدثكم ما حبسنى عندكم الغداة ، إنى قمت من الليل فصليت ما قدر لى فنعست فى صلاتى حتى استثقلت ، فإذا أنا بربى عز وجل فى أحسن صورة ، فقال : يا محمد أتدرى فيم يختصم الملأ الأعلى ؟ قلت : لا أدرى رب . قال : يا محمد فيم يختصم الملأ الأعلى ؟ قلت : لا أدرى رب . قال : يا محمد فيم يختصم الملأ الأعلى ؟ قلت : لا أدرى رب . فرأيته وضع كفه بين كتفى حتى وجدت برد أنامله فى صدرى وتجلى لى كل شىء

وعرفت فقال : يا محمد فيم يختصم الملأ الأعلى ؟ قلت : فى الكفارات والدرجات . قال : وما الكفارات ؟ قلت : نقل الأقدام إلى الجمعات . والجلوس فى المساجد بعد الصلوات . وإسباغ الوضوء عند الكريهات . قال : وما الدرجات ؟ قلت : إطعام الطعام ، ولين الكلام ، والصلاة والناس نيام . قال : سل ؟ قلت : اللهم إنى أسألك فعل الخيرات ، وترك المنكرات ، وحب المساكين ، وأن تغفر لى وترحمنى ، وإذا أردت فتنة فى قوم فتوفنى غير مفتون ، وأسألك حبك وحب من يحبك وحب عمل يقربنى إلى حبك ، وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : إنها حق فادرسوها وتعلموها » . وخرجه الترمذى ، وقال : حديث حسن صحيح . قال : وسألت محمد بن إسماعيل البخارى عن هذا فقال : هذا حديث حسن صحيح .

قلت : وفى إسناده اختلاف ، وله طرق متعددة ، وفى بعضها زيادة ، وفى بعضها نقصان . وقد ذكرت عامة أسانيده وبعض ألفاظه المختلفة فى كتابى شرح الترمذى ، وفى بعض ألفاظه عند الإمام أحمد . والترمذى أيضاً: « المشى على الأقدام إلى الجماعات» بدل الجمعات ، وفيه أيضاً عندهما بعد ذكر الكفارات زيادة : « ومن فعل ذلك عاش بخير ومات بخير وكان من خطيئته كيوم ولدته أمه » . وفيه أيضاً عندهما : « والدرجات إفشاء السلام » بدل لين الكلام ، وفى بعض رواياته : « فعلمت ما فى السماء والأرض

والبلوي

ثم تلى : ( وكذلك نرى إبراهيم ملكوت السموات والأرض ) . وليكون من الموقنين ) وفي رواية أخرى : « فتجلى لى ما بين السماء الأرض » وفي رواية « ما بين المشرق » . وفي بعضها زيادة فى الدعاء وهى : « وتتوب على » . وفي بعضها « إسباغ الوضوء فى السبرات »(١) وفي بعضها : « وقال : يا محمد إذا صليت فقل : اللهم إنى أسألك فعل الخيرات » فذكره .

والمقصود هنا شرح الحديث وما يستنبط منه من المعارف والأحكام وغير ذلك . ففى الحديث دلالة على أن النبى صلى الله عليه وسلم لم يكن من عادته تأخير صلاة الصبح إلى قريب طلوع الشمس ، وإنما كانت عادته التغليس(٢) بها ، وكان أحياناً يسفر بها(٣) عند انتشار الضوء على وجه الأرض ، وأما تأخيرها إلى قريب طلوع الشمس ، فلم يكن من عادته ولهذا اعتذر لهم عنه فى هذا الحديث . وقد قيل إن تأخيرها إلى هذا الإسفار الفاحش لا يجوز لغير عذر وأنه وقت ضرورة كتأخير العصر إلى بعد اصفرار الشمس وهو قول القاضى (٤) من أصحابنا فى بعض كتبه ،

(١) هو – بفتح السين المهملة والباء الموحدة – جمع سبرة بسكون الباء وهى شدة البرد وسيفسرها المصنف بعد ذلك .

(٢) الغلس ظلمة آخر الليل إذا اختلطت بضوء الصباح ، والتغليس التأخير إلى هذا الوقت .

(٣) يقال : أسفر الصبح إذا انكشف وأضاء ، والإسفار التأخير إلى هذا هذا الوقت .

(٤) اصطلاح علماء الحنابلة فى كتبهم إذا أطلق القاضى ينصرف إلى علامة زمانه محمد بن الحسين بن محمد بن خلف الفراء الملقب بأبى يعلى المتوفى سنة ٤٥٨ هـ .

وقد أومأ إليه الإمام أحمد وقال : هذه صلاة مفرط إنما الإسفار أن ينتشر الضوء على الأرض .

وفى الحديث دلالة على أن من أخر الصلاة إلى آخر الوقت لعذر أو غيره وخاف خروج الوقت فى الصلاة أن طولها أن يخففها حتى يدركها كلها فى الوقت .

وأما قول أبى بكر الصديق رضى الله عنه لما طول فى صلاة الفجر وقرأ بالبقرة فقيل له كادت الشمس أن تطلع . فقال : لو طلعت لم تجدنا غافلين ، فإن أبا بكر رضى الله عنه لم يتعمد التأخير إلى طلوع الشمس ولا أن يمدها ويطيلها حتى تطلع الشمس لأنه دخل فيها بغلس وأطال القراءة وربما كان قد استغرق فى تلاوته ، فلو طلعت الشمس حينئذ لم يضره لأنه لم يكن متعمداً لذلك ، وهذا يدل على أنه كان يرى صحة الصلاة لمن طلعت عليه الشمس وهو فى صلاته كما أمر النبى صلى الله عليه وسلم من طلعت عليه الشمس — وقد صلى ركعة من الفجر — أن يضيف إليها أخرى .

وفى حديث معاذ دليل على أن من رأى رؤيا تسره فإنه يقصها على أصحابه وإخوانه المحبين له ولا سيما إن تضمنت رؤياه بشارة لهم(١) وتعليما لما ينفعهم ، وقد كان النبى صلى الله عليه وسلم إذا

(١) وذلك ليجلب السرور لإخوانه ولا سيما إذا تعلقت الرؤيا بهم فتكون نواة للأعمال وتتجسم بالتكرار والتمرين فإنه متى ابتدأ بالقول يتسرب إلى نفسه سرور أصحابه فيجد بعض مايحسون به فيقدم على عمل ما ينفعهم كما يعمل لنفسه ، وهذا ما أشار إليه حديث أنس قال : قال صلى الله عليه وسلم : « لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه » رواه البخارى.ومسلم فكان صلى الله عليه وسلم=

صلى الفجر يقول لأصحابه : « من رأى منكم الليلة رؤيا »(١) . وفيه أيضاً أن من استثقل نومه فى تهجده بالليل حتى رأى رؤيا تسره فإن فى ذلك بشرى له . وفى مراسيل الحسن : « إذا نام العبد وهو ساجد باهى الله الملائكة يقول : ياملائكتى انظروا إلى عبدى جسده فى طاعتى وروحه عندى » . وفيه دلالة على شرف النبى صلى الله عليه وسلم وتفضيله بتعليمه ما فى السموات والأرض وتجلى ذلك له مما تختصم فيه الملائكة فى السماء وغير ذلك كما أرى إبراهيم ملكوت السموات ، وقد ورد فى غير حديث مرفوعاً وموقوفاً أنه صلى الله عليه وسلم أعطى علم كل شىء خلا مفاتيح الغيب الخمس التى اختص الله عز وجل بعلمها » وهى المذكورة فى قوله عز وجل : ( إن الله عنده علم الساعة وينزل الغيث ويعلم

---

=يريد أن يدخل المسلمون الفرح على بعضهم ولو بالشىء الصغير أو بمجرد القول فليس كل أحد يقدر أن يسر إخوانه بعمله بل بعضهم ليس محتاجاً إلى عمل يفرح به مما يتعلق بالحياة الدنيا فإذا بشره برؤياه فإنه يهش لذلك ويبدى الشكر العظيم فلا ينبغى للإنسان أن يحتقر أى شىء كان حتى ولو كان رؤيا ، ولهذا كان يقول صلى الله عليه وسلم لأصحابه : « من منكم رأى » ؟ ليفرح الذى لا يجد ما يتقدم به إلا مثل هذا فيحق له أن يشترك معهم فى البحث والمسرات .

(١) هو فى صحيح البخارى وغيره من كتب السنة قال المهلب : تعبير الرؤيا عند صلاة الصبح أولى من غيره من الأوقات لحفظ صاحبها لها لقرب عهده بها وقبل ما يعرض له نسيانها ، ولحضور ذهن العابر وقلة شغله بالفكرة فيما يتعلق بمعاشه ، وليعرف الرائى ما يعرض له بسبب رؤياه فيستبشر بالخير ويحذر من الشر ويتأهب لذلك فربما كان فى الرؤيا تحذير عن معصية فيكف عنها وربما كانت إنذاراً لأمر فيكون له مترقباً ، فهذه عدة فوائد لتعبير الرؤيا أول النهار ، والله أعلم .

ما فى الأرحام وما تدرى نفس ماذا تكسب غداً وما تدرى نفس بأى أرض تموت إن الله عليم خبير ) .

وأما وصف النبي صلى الله عليه وسلم لربه عز وجل بما وصفه به فكل ما وصف النبي صلى الله عليه وسلم ربه عز وجل به فهو حق وصدق يجب الإيمان والتصديق به ، كما وصف الله عز وجل به نفسه مع نفى التمثيل عنه ومن أشكل عليه فهم شيء من ذلك واشتبه عليه فليقل كما مدح الله تعالى به الراسخين فى العلم وأخبر عنهم أنهم يقولون عند المتشابه ( آمنا به كل من عند ربنا ) . وكما قال النبي صلى الله عليه وسلم فى القرآن : « وما جهلتم منه فكلوه إلى عالمه » . خرجه الإمام أحمد والنسائى وغيرهما . ولا يتكلف ما لا علم له به فإنه يخشى عليه من ذلك الهلكة .

سمع ابن عباس يوماً من يروى عن النبي صلى الله عليه وسلم شيئاً من هذه الأحاديث فانتفض رجل استنكاراً لذلك ، فقال ابن عباس : «مافرق هؤلاء يجدون رقة عند محكمه ويهلكون عند متشابهه » . خرجه عبد الرزاق فى كتابه عن معمر عن بن طاوس عن أبيه عن ابن عباس رضى الله عنهما . فكلما سمع المؤمنون شيئاً من هذا الكلام قالوا : هذا ما أخبرنا الله ورسوله ( وصدق الله ورسوله وما زادهم إلا إيماناً وتسليما ) .

وفيه دلالة على أن الملأ الأعلى وهم الملائكة أو المقربون منهم يختصمون فيما بينهم ويتراجعون القول فى الأعمال التى تقرب

بنى آدم إلى الله عز وجل وتكفر بها عنهم خطاياهم . وقد أخبر الله عنهم بأنهم يستغفرون للذين آمنوا ويدعون لهم . وفى الحديث الصحيح : « إن الله إذا أحب عبداً نادى إنى أحب فلاناً فأحبه فيحبه جبريل ، ثم ينادى فى السماء إن الله يحب فلاناً فأحبوه فيحبه أهل السماء ، ثم يوضع له القبول فى الأرض » .

وقال أبو هريرة رضى الله عنه : إذا مات ابن آدم قال الناس : ما خلف ، وقالت الملائكة : ما قدم . فالملائكة يسألون عن أعمال بنى آدم ولهم اعتناء بذلك واهتمام به ، وبقى الكلام على المقصود من الحديث وهو ذكر الكفارات والدرجات والدعوات ونعقد لكل واحدة منها فصلا مفرداً .

## الفصل الأول
## فى ذكر الكفارات

وهو إسباغ الوضوء فى الكريهات . ونقل الأقدام إلى الجمعات أو الجماعات . والجلوس فى المساجد بعد الصلوات . وسميت هذه كفارات لأنها تكفر الخطايا والسيئات ، ولذلك جاء فى بعض الروايات : « من فعل ذلك عاش بخير ومات بخير وكان من خطيئته كيوم ولدته أمه »(١) . وهذه الخصال المذكورة الأغلب

(١) لما تشتمل عليه الصلاة من الخضوع لله تعالى والإنابة إليه والتوبة من الأعمال السيئة فإن من صدق فى هذا الموقف العظيم ليس بكثير أن تغفر خطاياه الماضية ولا يستطيع أن يصدر خطايا ما دام يعلم أنه بعد سويعات يقف أمام الحاكم=

عليها تكفير السيئات ويحصل بها أيضاً رفع الدرجات كما فى صحيح مسلم عن أبى هريرة رضى الله عنه عن النبى صلى الله عليه وسلم قال : « ألا أدلكم على ما يمحو الله به الخطايا ويرفع به الدرجات ؟ قالوا : بلى يا رسول الله . قال : إسباغ الوضوء على المكاره . وكثرة الخطا إلى المساجد . وانتظار الصلاة بعد الصلاة ، فذلكم الرباط . . فذلكم الرباط » .

وقد روى هذا المعنى عن النبى صلى الله عليه وسلم من وجوه متعددة ، فهذه ثلاثة أسباب يكفر الله بها الذنوب . أحدها الوضوء وقد دل القرآن على تكفيره الذنوب فى قوله عز وجل : ( يا أيها الذين آمنوا إذا قمتم إلى الصلاة فاغسلوا وجوهكم وأيديكم إلى المرافق وامسحوا برءوسكم وأرجلكم إلى الكعبين ) إلى قوله : ( ما يريد الله ليجعل عليكم من حرج ولكن يريد ليطهركم وليتم

---

= العدل ويعرض أعماله جديدة على المحكمة الالهية على من لا تخفى عليه خافية إلا أن يكون ممن اتخذ الصلاة عادة أو أنه لا يفقه حكمتها بأكثر من الوقوف والركوع والسجود وهذه ليست الصلاة الحقيقية لأن الصلاة وصفها الله تعالى بقوله : ( وإنها لكبيرة إلا على الخاشعين) والقيام والقعود والسجود ليس بالأمر الكبير فترى الأطفال الصغار فى لعبهم يفعلون حركات تزيد على أعمال المصلى أضعافاً مضاعفة ولا نعدها بالأمر الكبير وإلا فإن الصلاة الصادقة تكفر الخطايا لما ينتج عنها من حسن النية واستقامة الأعمال والتباعد عن كل المنهيات لأنه ثمرة الصلاة كما قال تعالى : ( إن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر ) فكل ما ورد بحق الصلاة من غفران الذنوب ورفع الدرجات فهو خاص بالصلاة التى ذكرها الله بأنها كبيرة وأنها تنهى عن الفحشاء والمنكر وعليه فإن ما يوصل إلى هذه الثمرة الجيدة والعمل الصالح لا يستغرب أن يكون سبباً لكل شرف وفخر فى الدنيا والآخرة إن شاء الله تعالى .

نعمته عليكم ) . فقوله تعالى : ( ليطهركم ) يشمل طهارة ظاهر البدن بالماء ، وطهارة الباطن من الذنوب والخطايا ، وإتمام النعمة إنما يحصل بمغفرة الذنوب وتكفيرها كما قال تعالى لنبيه صلى الله عليه وسلم : ( ليغفر لك الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر ويتم نعمته عليك ) . وقد استنبط هذا المعنى محمد بن كعب القرظى ويشهد له الحديث الذى خرجه الترمذى وغيره عن معاذ : « أن النبى صلى الله عليه وسلم سمع رجلا يدعو يقول : اللهم إنى أسألك تمام النعمة . فقال له : أتدرى ما تمام النعمة ؟ قال : دعوة دعوت بها أرجو بها الخير . فقال النبى صلى الله عليه وسلم : إن تمام النعمة النجاة من النار ودخول الجنة » . فلا تتم نعمة الله على عبده إلا بتكفير سيئاته(١) .

وقد تكاثرت النصوص عن النبى صلى الله عليه وسلم بتكفير الخطايا بالوضوء كما فى صحيح مسلم عن عثمان رضى الله عنه : « أنه توضأ ثم قال : رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم توضأ

---

(١) وذلك لأن نعم الله على عبده فى الدنيا كثيرة كما قال تعالى : ( وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها ) فتمام هذه النعم أن يحوله إلى دار نعيمها لا يزول خالداً فيها ابداً وذلك بصرفه عن النار التى قال تعالى : ( وإن منكم إلا واردها ) وبدخوله الجنة لأن أعمال الإنسان لا تكافىء جزءاً من النعم التى يجب لله على عبده أن يؤديه الشكر والحمد عليها فتبقى السيئات محتاجة إلى التكفير ، وهذا ما يترشح من حديث أبى هريرة كما فى صحيح البخارى : « لن يدخل أحداً عمله الجنة قالوا ولا أنت يارسول الله قال ولا أنا إلا أن يتغمدنى الله بفضل ورحمته » .

مثل وضوئى هذا ثم قال : « من توضأ هكذا غفر له(١) ما تقدم من ذنبه وكانت صلاته ومشيه إلى المسجد نافلة » . وفيه أيضاً عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « من توضأ فأحسن الوضوء خرجت خطاياه من جسده حتى تخرج من تحت أظفاره » . وفيه أيضاً عن أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « إذا توضأ العبد المسلم أو المؤمن فغسل وجهه خرج من وجهه كل خطيئة نظر إليها بعينيه مع الماء أو مع آخر قطر الماء ، فإذا غسل يديه خرج من يديه كل خطيئة بطشها يداه مع الماء أو مع آخر قطر الماء ، فإذا غسل رجليه خرجت كل خطيئة مشتها رجلاه مع الماء أو مع آخر قطر الماء حتى يخرج نقياً من الذنوب » . وفيه أيضاً عن عمرو بن عبسة عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « ما منكم من رجل يقرب وضوءه فيمضمض ويستنشق فينتثر إلا خرجت خطايا وجهه وفيه وخياشيمه ثم إذا غسل وجهه كما أمره الله إلا خرجت خطايا وجهه من أطراف لحيته مع الماء ، ثم يغسل

---

(١) ذكر الإمام النووى فى شرحه على مسلم ما نصه: وقد يقال إذا كفر الوضوء فماذا تكفر الصلاة ؟ وإذا كفرت الصلاة فماذا تكفر الجمعات ورمضان ؟ وكذلك صوم يوم عرفة كفارة سنتين ويوم عاشوراء كفارة سنة وإذا وافق تأمينه تأمين الملائكة غفر له ما تقدم من ذنبه ، والجواب ما أجاب العلماء أن كل واحد من هذه المذكورات صالح للتكفير فإن وجد ما يكفره من الصغائر كفره وإن لم يصادف صغيرة ولا كبيرة كتبت به حسنات ورفعت به درجات وإن صادف كبيرة أو كبائر ولم يصادف صغيرة رجونا أن يخفف من الكبائر والله أعلم اهـ .

يديه إلى المرفقين إلا خرجت خطايا يديه من أنامله مع الماء ، ثم يمسح رأسه إلا خرجت خطايا رأسه من أطراف شعره مع الماء ، ثم يغسل قدميه إلى الكعبين إلا خرجت خطايا رجليه من أنامله مع الماء ، فإن هو قام فصلى فحمد الله وأثنى عليه ومجده بالذى هو له أهل وفرغ قلبه لله إلا انصرف من خطيئته كهيئته يوم ولدته أمه » .

وفى الموطأ ، ومسند الإمام أحمد ، وسنن النسائى ، وابن ماجه عن الصنابحى عن النبى صلى الله عليه وسلم قال : « إذا توضأ العبد المؤمن فمضمض خرجت الخطايا من فيه ، فإذا استنشق خرجت الخطايا من أنفه ، فإذا غسل وجهه خرجت الخطايا من وجهه حتى تخرج من تحت أشفار عينيه ، فإذا غسل يديه خرجت الخطايا من يديه حتى تخرج من تحت أظفار يديه ، فإذا مسح برأسه خرجت الخطايا من رأسه حتى تخرج من أذنيه فإذا غسل رجليه خرجت الخطايا من رجليه حتى تخرج من تحت أظفار رجليه ، ثم كان مشيه إلى المسجد وصلاته نافلة له » .

وفى المسند عن أبى أمامة عن النبى صلى الله عليه وسلم قال : « ما من مسلم يتوضأ فيغسل يديه ويمضمض فاه ويتوضأ كما أمر إلا حط الله عنه يومئذ ما نطق به فمه وما مس بيده وما مشى إليه حتى إن الخطايا تحادر من أطرافه ثم هو إذا مشى إلى المسجد فرجل تكتب حسنة وأخرى تمحو سيئة » . وفيه أيضاً عن النبى

صلى الله عليه وسلم قال : « أيما رجل قام إلى وضوئه يريد الصلاة ثم غسل كفيه نزلت خطيئته من كفيه مع أول قطرة ، فإذا مضمض واستنشق واستنثر نزلت خطيئته من لسانه وشفتيه مع أول قطر ، فإذا غسل وجهه نزلت خطيئته من سمعه وبصره مع أول قطرة ، فإذا غسل يديه إلى المرفقين ورجليه إلى الكعبين سلم من كل ذنب هو له وكان من كل خطيئة كهيئته يوم ولدته أمه ، فإذا قام إلى الصلاة رفع الله درجته وإن قعد قعد سالماً » . وفى المعنى أحاديث أخر وفيما ذكرناه كفاية ، والله الحمد والمنة .

وقد وردت النصوص أيضاً بحصول الثواب على الوضوء وهذا زيادة على تكفير السيئات ، ففى صحيح مسلم عن عمر رضى الله عنه عن النبى صلى الله عليه وسلم قال : « من توضأ فأحسن الوضوء ثم قال أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً عبده ورسوله فتحت له أبواب الجنة الثمانية يدخل من أيها شاء » . وفيه أيضاً عن أبى هريرة عن النبى صلى الله عليه وسلم يقول : « تبلغ الحلية من المؤمن حيث يبلغ الوضوء » . وفيه أيضاً عن أبى هريرة عن النبى صلى الله عليه وسلم قال : « أنتم الغر المحجلون يوم القيامة من إسباغ الوضوء » . وخرجه البخارى ولفظه : « إن أمتى يدعون يوم القيامة غراً محجلين من آثار الوضوء » .

واعلم أن حديث معاذ بن جبل فى المنام إنما فيه ذكر إسباغ الوضوء على الكريهات ، وكذا فى حديث أبى هريرة المبدوء

يذكره فى هذا الفصل فههنا أمران ، أحدهما : إسباغ الوضوء ، وهو إتمامه وإبلاغه مواضعه الشرعية كالثوب السابغ المغطى للبدن كله . وفى مسند البزار عن عثمان مرفوعاً : « من توضأ فأسبغ الوضوء غفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر » وإسناده لا بأس به ، وخرجه ابن أبى عاصم من وجه آخر عن عثمان ، وخرج النسائى وابن ماجه من حديث أبى مالك الأشعرى عن النبى صلى الله عليه وسلم قال : « إسباغ الوضوء شطر الإيمان » وخرجه مسلم ولفظه : « الطهر شطر الإيمان » .

وثانيهما : أن يكون إسباغه على الكريهات ، والمراد أن يكون على حالة تكره النفس فيها الوضوء ، وقد فسر بحال نزول المصائب فإن النفس حينئذ تطلب الجزع ، فالاشتغال عنه بالصبر والمبادرة إلى الوضوء والصلاة من علامة الإيمان كما قال عز وجل : ( استعينوا بالصبر والصلاة وإنها لكبيرة إلا على الخاشعين ) . وقال تعالى : ( يا أيها الذين آمنوا استعينوا بالصبر والصلاة إن الله من الصابرين ) . والوضوء مفتاح الصلاة ، وقد يطفأ به حرارة القلب الناشئة عن ألم المصائب ، كما يؤمر من غضب بإطفاء غضبه بالوضوء ، وفسرت الكريهات بالبرد الشديد ، ويشهد له أن فى بعض روايات حديث معاذ « إسباغ الوضوء على السبرات » والسبرة شدة البرد . ولا ريب أن إسباغ الوضوء فى شدة البرد يشق على النفس وتتألم به وكل ما يؤلم النفس ويشق عليها فإنه كفارة

للذنوب وإن لم يكن للإنسان فيه صنع ولا تسبب كالمرض ونحوه كما دلت النصوص الكثيرة على ذلك .

وأما إن كان ناشئاً عن فعل هو طاعة لله تعالى فإنه يكتب لصاحبه به أجر وترفع به درجاته كالألم الحاصل للمجاهد فى سبيل الله تعالى . قال الله عز وجل : ( ذلك بأنهم لا يصيبهم ظمأ ولا نصب ولا مخمصة فى سبيل الله ولا يطئون موطئاً يغيظ الكفار ولا ينالون من عدو نيلا إلا كتب لهم به عمل صالح إن الله لا يضيع أجر المحسنين ) . وكذلك ألم الجوع والعطش الذى يحصل للصائم ، فكذا التألم بإسباغ الوضوء فى البرد ويجب الصبر على الألم بذلك فإن حصل به رضاً فذلك مقام خواص العارفين المحبين وينشأ الرضا بذلك عن ملاحظة أمور .

أحدها : تذكر فضل الوضوء من حطه للخطايا ورفعه للدرجات وحصول الغرة والتحجيل به وبلوغ الحلية فى الجنة إلى حيث يبلغ ، وهذا كما انكسر ظفر بعض الصالحات من السلف من عثرة عثرتها فضحكت وقالت : أنسانى حلاوة ثوابه مرارة وجعه . وقال بعض العارفين : من لم يعرف ثواب الأعمال ثقلت عليه فى جميع الأحوال .

الثانى : تذكر ما أعده الله عز وجل لمن عصاه من العذاب بالبرد والزمهرير فى الآخرة فإن شدة برد الدنيا يذكر زمهرير جهنم ، وفى الحديث الصحيح : « إن أشد ما تجدون من البرد من

زمهرير جهنم » فملاحظة هذا الألم الموعود يهون الإحساس بألم برد الماء كما روى عن زبيد اليامى أنه قام ليلة للتهجد وكان البرد شديداً ، فلما أدخل يده فى الإناء وجد شدة برده فذكر زمهرير جهنم فلم يشعر ببرد الماء بعد ذلك وبقيت يده فى الماء حتى أصبح فقالت له جاريته : مالك لم تصل الليلة كما كنت تصلى ؟ فقال : إنى لما وجدت شدة برد الماء ذكرت زمهرير جهنم فما شعرت به حتى أصبحت فلا تخبرى بهذا أحداً ما دمت حياً .

الثالث : ملاحظة جلال من أمر بالوضوء ومطالعة عظمته وكبريائه وتذكر التهيؤ للقيام بين يديه ومناجاته فى الصلاة فذلك يهون كل ألم ينال العبد فى طلب مرضاته من برد الماء وغيره وربما لم يشعر بالماء بالكلية كما قال بعض العارفين :

* بالمعرفة هانت على العاملين العبادة *

قال سعيد بن عامر : بلغنى أن إبراهيم الخليل صلى الله عليه وسلم كان إذا توضأ سمع لعظامه قعقعة . وكان على بن الحسين إذا توضأ اصفر ، فيقال له : ما هذا الذى يعتريك عند الوضوء ؟ فيقول : أتدرون بين يدى من أريد أن أقوم له ؟(١) . وكان منصور بن زاذان إذا فرغ من وضوئه يبكى حتى يرتفع صوته فقيل له ما شأنك ؟ فقال : وأى شىء أعظم من شأنى إنى أريد

---

(١) لا شك أن مثل هذه الفكرة وحصول هذه الهيبة من الوقوف أمام رب الأرباب يذيب السيئات ويجعلها حسنات ( فأولئك يبدل الله سيئاتهم حسنات ) .

أن أقوم بين يدى من لا تأخذه سنة ولا نوم فلعله يرضى عنى . وكان عطاء السلمى إذا فرغ من وضوئه ارتعد وانتفض وبكى بكاء شديداً . فقيل له فى ذلك فقال : إنى أريد أن أتقدم إلى أمر عظيم إنى أريد أن أقوم بين يدى الله عز وجل .

الرابع : استحضار اطلاع الله عز وجل على عبده فى حال العمل له وتحمل المشاق لأجله فمن تيقن أن البلاء بعين(١) من يحبه هان عليه الألم كما أشار تعالى إلى ذلك بقوله عز وجل لنبيه صلى الله عليه وآله وسلم : ( واصبر لحكم ربك فإنك بأعيننا ) . وقوله تعالى لموسى وهارون عليهما السلام : ( لا تخافا إننى معكما أسمع وأرى ) . وقال صلى الله عليه وسلم : « اعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك » . قال أبو سليمان : قرأت فى بعض الكتب يقول الله عز وجل :«بعينى ما تحمل المتحملون من أجلى وكابد المكابدون فى طلب مرضاتى ، فكيف بهم وقد صاروا فى جوارى وتبحبحوا فى رياض خلدى ؟ فهنالك فليستبشر المصفون

---

(١) أى بمشاهدته واطلاعه كأنه يراه بعينه ولذلك يشتاق لذلك الأمر وإن كان يشق على نفسه تحمل مثله لو كان من غير المحبوب ، ولا ريب أن هذا يتفاوت فكلما ازداد الحب والعشق فإنه لا يرى شيئاً منكراً أو صعباً مهما عظم ما دام يصدر من محبوبه « كل ما فعله المحبوب محبوب » وقد يبلغ منه الوله إلى درجة أنه يستعذب ذلك العذاب ويراه امراً نافعاً فعند أدائه يظهر مقدرته فى إتقانه وإظهار الأخلاص والرضا عنه وهذا هو الحب الحقيق الذى من اتصف به شعر بكونه ممن قال فيهم ( يبشرهم ربهم برحمة منه ورضوان ) .

لله أعمالهم بالمنظر العجيب من الحبيب القريب ، أترون أنى أضيع لهم عملا ؟ فكيف وأنا أجود على المولين عنى فكيف بالمقبلين إلى ؟ »

فإسباغ الوضوء فى البرد لاسيما فى الليل يطلع الله عليه ويرضى به ويباهى به الملائكة ، فاستحضار ذلك يهون ألم برد الماء . وفى المسند ، وصحيح ابن حبان عن عقبة بن عامر عن النبى صلى الله عليه وسلم قال : « رجلان من أمتى يقوم أحدهما من الليل يعالج نفسه إلى الطهور وعليه عقد فيتوضأ ، فإذا وضأ يديه انحلت عقدة وإذا وضأ وجهه انحلت عقدة وإذا مسح رأسه انحلت عقدة وإذا وضأ رجليه انحلت عقدة فيقول الرب عز وجل للذى وراء الحجاب : انظروا إلى عبدى هذا يعالج نفسه يسألنى ما سألنى عبدى هذا فهو له » . وذكر بقية الحديث . وروى عن عطية عن أبى سعيد عن النبى صلى الله عليه وسلم : « إن الله يضحك إلى ثلاثة نفر ، رجل قام من جوف الليل فأحسن الطهور فصلى » وذكر الحديث . كان بعض السلف له ورد بالليل ففتر عنه فهتف به هاتف ينظر الله فى الليل لما يصنع خدامه إذا قاموا أوحشتهم على الخدمة أحكامه .

الخامس : الاستغراق فى محبة من أمر بهذه الطاعة وأنه يرضى بها ويحبها كما قال تعالى : ( إن الله يحب التوابين ويحب المتطهرين ) فمن امتلأ قلبه من محبة الله عز وجل أحب ما يحبه وإن شق على النفس وتألمت به كما يقال المحبة تهون الأثقال . وقال بعض السلف

فى مرضه أحبه إلى آحبه إليه . وكما قيل :

* فما لجرح إذا أرضاكم ألم *

وكما قيل أيضاً :

فى حبكم يهون ما قد ألقى يسعد بالنعيم من لا يشقى

من خدم من يحب تلذذ بشقائه فى خدمته . وقال بعضهم : القلب المحب لله يحب النصب(١) له ، وقال عبد الصمد : أوجد لهم فى عذابه عذوبة . إسباغ الوضوء على المكاره من علامات المحبين كما فى كتاب الزهد للإمام أحمد عن عطاء بن يسار قال : قال موسى عليه السلام : « يارب من أهلك الذين هم أهلك الذين تظلهم فى ظل عرشك ؟ قال : هم البريئة أبدانهم ، الطاهرة قلوبهم ، الذين يتحابون بجلالى ، الذين إذا ذكرت ذكروا بى وإذا ذكروا ذكرت بذكرهم ، الذين يسبغون الوضوء فى المكاره وينيبون إلى ذكرى كما تنيب النسور إلى أوكارها ويكلفون بحبى كما يكلف الصبى بحب الناس ، ويغضبون لمحارمى إذا استحلت كما يغضب النمر إذا حرب » .

وقد يخرق الله العادة لبعض المحبين له فلا يجد ألم برد الماء كما كان بعض السلف قد دعا الله أن يهون عليه الطهور فى الشتاء فكان يؤتى بالماء وله بخار ، وربما سلب بعضهم الإحساس فى الحر والبرد مطلقاً ، وكان على بن أبى طالب رضى الله عنه قد دعا له

---

(١) أى التعب ليكون أدل على إخلاصه وأثبت على قربه من محبوبه الذى يرجو أن يعطف عليه ويخفف عناء التعب بما يأمله من الوصال والرضاء .

النبي صلى الله عليه وسلم أن يذهب الله عنه الحر والبرد فكان يلبس فى الصيف لباس الشتاء وفى الشتاء لباس الصيف . وقال النبي صلى الله عليه وسلم فيه : « إنه يحب الله ورسوله ويحبه الله ورسوله » . ورأى أبو سليمان الدارانى فى طريق الحج فى شدة برد الشتاء شيخاً عليه أخلاق رثة وهو يرشح عرقاً ، فسأله عن حاله فقال : إنما الحر والبرد خلقان لله عز وجل فإن أمرهما أن يغشيانى أصابانى وإن أمرهما أن يتركانى تركانى ، وقال : أنا فى هذه البرية منذ ثلاثين سنة يلبسنى فى البرد فيحا من محبته ويلبسنى فى الصيف برداً من محبته ، وقيل لآخر وعليه خرقتان فى برد شديد : لو استترت فى موضع يكنك من البرد ، فأنشد :

ويحسن ظنى أننى فى فنائه وهل أحد فى كنه يجد البردا

السبب الثانى : من مكفرات الذنوب المشى على الأقدام إلى الجماعات وإلى الجمعات ولا سيما إن توضأ الرجل فى بيته ثم خرج إلى المسجد لا يريد بخروجه إلا الصلاة فيه كما فى الصحيحين عن أبى هريرة رضى الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « صلاة الرجل فى الجماعة تضعف على صلاته فى بيته وفى سوقه خمساً وعشرين ضعفاً ، وذلك أنه إذا توضأ فأحسن الوضوء ثم خرج إلى المسجد لا يخرجه إلا الصلاة لم يخط خطوة إلا رفعت له بها درجة وحط عنه بها خطيئة ، فإذا صلى لم تزل الملائكة تصلى عليه ما دام فى مصلاه : اللهم صل عليه ، اللهم ارحمه . ولا يزال أحدكم فى صلاة ما انتظر الصلاة » .

وفى صحيح مسلم عن أبى هريرة عن النبى صلى الله عليه وسلم قال : « من تطهر فى بيته ثم مشى إلى بيت من بيوت الله ليقضى فريضة من فرائض الله كانت خطوتاه إحداهما تحط خطيئة والأخرى ترفع درجة »(١) . وفى الصحيحين عن أبى هريرة عن النبى صلى الله عليه وسلم قال : « كل خطوة تمشيها إلى الصلاة صدقة » . وفى المسند وصحيح ابن حبان عن عقبة بن عامر عن النبى صلى الله عليه وسلم قال : « إذا تطهر الرجل ثم أتى المسجد يرعى الصلاة كتب له كاتباه بكل خطوة يخطوها إلى المسجد عشر حسنات » . وفيهما أيضاً عن عبد الله بن عمرو عن النبى صلى الله عليه وسلم قال : « من راح إلى مسجد جماعة فخطوتاه خطوة تمحو سيئة وخطوة تكتب حسنة ذاهباً وراجعاً » . وفى

---

(١) وبيان ذلك أن الفروض الخمسة التى بنى الإسلام عليها لها جهتان ، جهة الفرضية وهذه لا بد من أدائها منفرداً أو مع جماعة ، وجهة كونها شعيرة من شعائر الإسلام وهذه ينبغى أن تكون فى جماعة فإذا مشى إلى المسجد كانت خطاه داعية لغيره من المسلمين إلى الصلاة لهذا يثاب فى كل خطوة يخطوها فإن الاجتماع مطلوب مثل طلب العبادة ذاتها لأن الديانة الإسلامية اعتقادية وعملية تنظر إلى المجموع نظرها إلى الفرد فكل ما فيه فائدة تعود إلى المسلمين فإنه عبادة أو من أشرف العبادات وأكملها فترى الشارع فى جعل صلاة الجماعة تعدل صلاة الفذ – أي المنفرد – بخمس وعشرين درجة لما يحصل فيها من الفوائد التى تعود على الجماعة من إعلان شعائر الله وترغيب غيره لمثل هذا العمل الجليل والتعارف الذى يكون سبباً لقوة الإسلام وحفظ كيانه ولا يستطيع الإنسان أن يؤدى عبادة وليس له أعوان يشدون أزره ويؤيدون معتقده ولذلك تجد الأجر العظيم وعده الله على كل عمل يعود على جماعة المسلمين بالفائدة .

سنن أبى داود عن أبى أمامة عن النبى صلى الله عليه وسلم قال : « من خرج من بيته متطهراً إلى صلاة مكتوبة فأجره كأجر الحاج المحرم »(١) . وفيه أيضاً عن رجل من الأنصار عن النبى صلى الله عليه وسلم قال : « من توضأ فأحسن الوضوء ثم خرج إلى الصلاة لم يرفع قدمه اليمنى إلا كتب الله له بها حسنة ولم يضع قدمه اليسرى إلا حط الله عنه بها خطيئة ، فليقرب أو ليبعد فإن أتى المسجد فصلى فى جماعة غفر له » والأحاديث فى هذا المعنى كثيرة جداً .

فالمشى إلى الجمعات له مزيد فضل لاسيما إن كان بعد الاغتسال كما فى السنن عن أوس بن أوس رضى الله عنه عن النبى صلى الله عليه وسلم قال: «من غسل يوم الجمعة واغتسل وبكروابتكرومشى ولم يركب ودنا من الإمام واستمع ولم يلغ كان له بكل خطوة أجر سنة صيامها وقيامها » وكلما بعد المكان الذى يمشى منه إلى المسجد كان أفضل لكثرة الخطا وفى صحيح مسلم عن جابر قال : « كانت دارنا نائية عن المسجد فأردنا أن نبيع بيوتنا فنقرب من المسجد فنهانا رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال : إن لكم بكل خطوة حسنة » وفى صحيح البخارى عن أنس أن

(١) أى لتشابه القصد فى كل منهما ولما كان الاجتماع فى الحج أعظم جعله مشبها به لأنه عبارة عن جمعية إسلامية كبيرة يراد منها النظر فى مصلحة المسلمين العامة وإليه الأشارة فى آية ( ليشهدوا منافع لهم ويذكروا اسم الله ) وقد قال صلى الله عليه وسلم كما رواه الدارقطنى عن جابر « ابدءوا بما بدأ الله به » فيكون معظم غاية الحج هو شهود منافع المسلمين .

النبي صلى الله عليه وسلم قال : « يابني سلمة ألا تحتسبون آثاركم » وفى الصحيحين عن أبى موسى أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « إن أعظم الناس أجراً فى الصلاة أبعدهم إليها ممشى فأبعدهم » ، ومع هذا فنفس الدار القريبة من المسجد أفضل من الدار البعيدة عنه لكن المشى من الدار البعيدة أفضل ، فنى المسند عن حذيفة عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : « فضل الدار القريبة من المسجد على الدار البعيدة الشاسعة كفضل الغازى على القاعد » وإسناده منقطع والمشى إلى المسجد أفضل من الركوب كما تقدم فى حديث أوس فى الجمع ، ولهذا جاء فى حديث معاذ ذكر المشى على الأقدام ، وكان النبي صلى الله عليه وسلم لا يخرج إلى الصلاة إلا ماشياً حتى العيد يخرج إلى المصلى ماشياً فإن الآتى للمسجد زائر الله والزيارة على الأقدام أقرب إلى الخضوع والتذلل كما قيل :

لو جئتكم زائراً أسعى على بصرى لم أد حقاً وأى الحــق أديت

وفى صحيح البخارى عن أبى هريرة عن النبى صلى الله عليه وآله وسلم قال : «من غدا إلى المسجد أو راح أعد الله له نزلا فى الجنة كلما غدا أو راح » والنزل هو ما يعد للزائر عند قدومه ، وفى الطبرانى من حديث سلمان مرفوعاً : « من توضأ فى بيته فأحسن الوضوء ثم أتى المسجد فهو زائر الله تعالى وحق على المزور أن يكرم الزائر » وفى صحيح مسلم عن أبى بن كعب قال : كان رجل لا أعلم

رجلا أبعد من المسجد منه وكان لاتخطئه صلاة فى المسجد ، قال فقيل له أو قلت له لو اشتريت حماراً تركبه فى الظلماء أو فى الرمضاء فقال ما يسرنى أن منزلى إلى جنب المسجد إنى أريد أن يكتب لى ممشاى إلى المسجد ورجوعى إذا رجعت إلى أهلى فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « قد جمع الله لك ذلك كله » وكلما شق المشى إلى المسجد كان أفضل ولهذا فضل المشى إلى صلاة العشاء وصلاة الصبح وعدل بقيام الليل كله كما فى صحيح مسلم عن عثمان عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « من صلى العشاء فى جماعة فكأنما قام نصف الليل ومن صلى الصبح فى جماعة فكأنما قام الليل » وفى الصحيحين عن أبى هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « أثقل صلاة على المنافقين صلاة العشاء وصلاة الفجر ولو يعلمون ما فيهما لأتوهما ولو حبواً» . وإنما ثقلت هاتان الصلاتان على المنافقين لأن المنافق لا ينشط للصلاة إلا إذا رآه الناس كما قال تعالى : ( وإذا قاموا إلى الصلاة قاموا كسالى يراءون الناس ولا يذكرون الله إلا قليلا ) وصلاة العشاء والصبح يقعان فى ظلمة فلا ينشط للمشى إليهما إلا كل مخلص يكتفى برؤية الله عز وجل وحده لعلمه به .

وثواب المشى إلى الصلاة فى الظلم النور التام فى ظلم القيامة كما فى سنن أبى داود . والترمذى عن بريدة عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « بشر المشائين فى الظلم إلى المساجد بالنور التام يوم

القيامة » (١) وخرجه ابن ماجه من حديث سهل بن سعد ، وقد روى من وجوه كثيرة . وفى بعضها زيادة: « يفزع الناس ولا يفزعون » قال النخعى : وكانوا يرون أن المشى فى الليلة الظلماء إلى الصلاة موجبة — يعنى توجب المغفرة .

وروينا عن الحسن قال : أهل التوحيد فى النار لا يقيدون فيقول الخزنة بعضهم لبعض : ما بال هؤلاء لا يقيدون وهؤلاء يقيدون ؟ فيناديهم مناد أن هؤلاء كانوا يمشون فى ظلم الليل إلى المساجد كما أن مواضع السجود من عصاة الموحدين فى النار لا تأكلها النار فكذلك الأقدام التى تمشى إلى المساجد فى الظلم لا تقيد فى النار ، ولا يسوى فى العذاب بين من خدمه وبين من لم يخدمه وإن عذبه :

ومن كان فى سخطه محسناً فكيف يكون إذا ما رضى

لما كانت الصلاة صلة بين العبد وربه ومناجاة تظهر فيها آثار تجليه لقلوب العارفين وقربه شرع قبل الدخول فيها الطهارة فإنه لا يصلح للوقوف بين يدى الله عز وجل والخلوة بمناجاته إلا طاهر فأما المتلوث بالأوساخ الظاهرة والباطنة فلا يصلح للقرب فشرع الله عز وجل للمصلى غسل أعضائه بالماء ورتب

---

(١) لأنه أدل على الأخلاص وأبعد عن الرياء حيث النفس تجد لها ميداناً واسعاً وأنصاراً أقوياء وتقطع أملها من حصول ثناء الناس عليها لشدة الظلام الذى لا يراه فيه أحد إلا الله تعالى فيكون عمله خالصاً لوجهه فيبشره بالنور التام ونعم البشارة .

عليها طهارة الذنوب وتكفيرها حتى يجتمع لمن يريد المناجاة طهارة ظاهرة وباطنة ، ثم شرح المشى إلى المساجد .

وفيه أيضاً تكفير الخطايا حتى تكمل طهارة الذنوب إن بقى منها شيء بعد الوضوء حتى لا يقف العبد فى مقام المناجاة إلا بعد كمال طهارة ظاهرة وباطنة من دون الأوساخ والذنوب ، ولهذا شرح له تجديد التوبة والاستغفار عقب كل وضوء حتى تكمل طهارة ذنوبه كما خرج النسائى من حديث أبى سعيد مرفوعاً وموقوفاً : « من توضأ فأسبغ الوضوء ثم قال عند فراغه من وضوئه : سبحانك اللهم وبحمدك أستغفرك وأتوب إليك ختم عليها بخاتم فوضعت تحت العرش فلم تكسر إلى يوم القيامة » ومتى اجتهد العبد على تكميل طهارته ومشيه إلى المسجد ولم يقو ذلك على تكفير ذنوبه فإن الصلاة يكمل بها التكفير كما فى الصحيحين عن أبى هريرة عن النبى صلى الله عليه وسلم قال : « أرأيتم لو أن نهراً بباب أحدكم يغتسل فيه كل يوم خمس مرات هل يبقى من درنه شيء ؟ قالوا : لا يبقى من درنه شيء قال : فذلك مثل الصلوات الخمس يمحو الله بهن الخطايا » وإن قوى الوضوء وحده على تكفير الخطايا فالمشى إلى المسجد والصلاة بعده تكون زيادة حسنات وهذا هو المراد من قول النبى صلى الله عليه وسلم فى حديث عثمان . والصنابحى وكان مشيه إلى المسجد وصلاته نافلة ، وقد سبق ذكر الحديثين .

واعلم أن جمهور العلماء على أن هذه الأسباب كلها إنما تكفر الصغائر دون الكبائر وقد استدل بذلك عطاء وغيره . من السلف فى الوضوء وقال سلمان الفارسى رضى الله عنه : الوضوء يكفر الجراحات الصغار والمشى إلى المسجد يكفر أكثر من ذلك والصلاة تكفر أكثر من ذلك .خرجه محمد بن نصر المروزى ، ويدل على أن الكبائر لا تكفر بذلك ما فى الصحيحين عن أبى هريرة عن النبى صلى الله عليه وسلم قال : « الصلوات الخمس والجمعة إلى الجمعة ورمضان إلى رمضان مكفرات لما بينهن إذا اجتنبت الكبائر » وفى صحيح مسلم عن عثمان عن النبى صلى الله عليه وسلم قال : « ما من امرئ مسلم تحضره صلاة مكتوبة فيحسن وضوءها وخشوعها وركوعها وسجودها إلا كانت كفارة لما قبلها من الذنوب ما لم تؤت كبيرة وذلك الدهر كله » فانظر إلى كم تيسر لك أسباب تكفير الخطايا لعلك تطهر منها قبل الموت فتلقاه طاهراً فتصلح لمجاورته فى دار السلام ، وأنت تأبى ألا أن تموت على خبث الذنوب ، فتحتاج إلى تطهيرها فى كير جهنم ، ياهذا أماعلمت أنه لايصلح لقربنا إلاطاهر فإذا أردت قربنا ومناجاتنا اليوم فطهر ظاهرك وباطنك لتصلح لذلك وإن أردت قربنا ومناجاتنا غداً فطهر قلبك من سوانا لتصلح لمجاورتنا ( يوم لا ينفع مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم ) والقلب السليم الذى ليس فيه غير محبة الله ومحبة ما يحبه الله « إن الله طيب لا يقبل إلا طيباً » فما كل أحد يصلح لمجاورة الله تعالى غداً ولا كل عبد

يصلح لمناجات الله اليوم ولا على كل الحالات تحسن المناجاة .

الناس من الهــوى على أصناف هذا نقض العهد وهذا وافى
هيهات من الكدور تبغى الصافى ما يصلح للحضرة قلب جافى

السببَ الثالث : من مكفرات الذنوب الجلوس فى المساجد بعد الصلوات والمراد بهذا الجلوس انتظار صلاة أخرى كما فى حديث أبى هريرة : « وانتظار الصلاة بعد الصلاة فذلكم الرباط فذلكم الرباط » فجعل هذا من الرباط فى سبيل الله عز وجل وهذا أفضل من الجلوس قبل الصلاة لانتظارها ، فإن الجالس لانتظار الصلاة ليؤديها ثم يذهب تقصر مدة انتظاره ، بخلاف من صلى صلاة ثم جلس ينتظر أخرى فإن مدته تطول ، فإن كان كلما صلى صلاة جلس ينتظر ما بعدها استغرق عمره بالطاعة وكان ذلك بمنزلة الرباط فى سبيل الله عز وجل .

وفى المسند ، وسنن ابن ماجه ، عن عبد الله بن عمرو رضى الله عنهما قال : « صليت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم المغرب فرجع من رجع وعقب من عقب فجاء رسول الله صلى الله عليه وسلم مسرعاً قد حفزه النفس وقد حسر عن ركبتيه فقال : أبشروا هذا ربكم قد فتح باباً من أبواب السماء يباهي بكم الملائكة يقول انظروا إلى عبادى قد قضوا فريضة وهم ينتظرون أخرى » .

وفى المسند عن أبى هريرة عن النبى صلى الله عليه وسلم قال : « منتظر الصلاة بعد الصلاة كفارس اشتد به فرسه فى سبيل الله

كشحه تصلى عليه ملائكة الله ما لم يحدث أو يقوم وهو فى الرباط الأكبر » ويدخل فى قوله : « والجلوس فى المساجد بعد الصلوات » الجلوس للذكر والقراءة ، وسماع العلم وتعليمه ونحو ذلك لا سيما بعد صلاة الصبح حتى تطلع الشمس ، فإن النصوص قد وردت بفضل ذلك وهو شبيه بمن جلس ينتظر صلاة أخرى لأنه قد قضى ما جاء إلى المسجد لأجله من الصلاة وجلس ينتظر طاعة أخرى .

وفى الصحيح عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « ما اجتمع قوم فى بيت من بيوت الله تعالى يتلون كتاب الله ويتدارسونه بينهم إلا نزلت عليهم السكينة وغشيتهم الرحمة وحفتهم الملائكة وذكرهم الله فيمن عنده » .

وأما الجالس قبل الصلاة فى المسجد لانتظار تلك الصلاة خاصة فهو فى صلاة حتى يصلى . وفى الصحيحين عن أنس عن النبي صلى الله عليه وسلم : « أنه لما أخر صلاة العشاء الآخرة ثم خرج فصلى بهم قال لهم : إنكم لم تزالوا فى صلاة ما انتظرتم الصلاة » . وفيهما أيضاً عن أبى هريرة رضى الله عنه عن النبى صلى الله عليه وسلم قال : « الملائكة تصلى على أحدكم ما دام فى مصلاه ما لم يحدث اللهم غفر له اللهم ارحمه ولا يزال أحدكم فى صلاة ما كانت الصلاة تحبسه لا يمنعه أن ينقلب إلى أهله إلا الصلاة » وفى رواية لمسلم : «ما لم يؤذ فيه ما لم يحدث فيه » وهذا يدل على أن المراد بالحدث حدث اللسان ونحوه من الأذى ، وفسره

أبو هريرة بحدث الفرج ،وقيل إنه يشمل الحدثين . وفى المسند عن عقبة بن عامر عن النبى صلى الله عليه وسلم قال : « القاعد يراعى الصلاة كالقانت ويكتب من المصلين من حين يخرج من بيته حتى يرجع إليه » وفى رواية له:« فإذا صلى فى المسجد ثم قعد فيه كان كالصائم القانت حتى يرجع » وفى هذا المعنى أحاديث كثيرة ، وبالجملة فالجلوس فى المساجد للطاعات له فضل عظيم . وفى حديث أبى هريرة رضى الله عنه عن النبى صلى الله عليه وسلم قال : « لا يوطن رجل المساجد للصلاة والذكر إلا تبشبش الله عز وجل به كما يتبشبش أهل الغائب إذا قدم عليهم غائبهم » . وروى دراج عن أبى الهيثم عن أبى سعيد، عن النبى صلى الله عليه وسلم قال : « من ألف المسجد ألفه الله » (١) . وقال سعيد بن المسيب : من جلس فى المسجد فإنما يجالس الله عز وجل (٢) وصح عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه عد من السبعة الذين يظلهم الله فى ظله يوم لا ظل إلا ظله:« رجل قلبه معلق بالمسجد إذا خرج منه حتى يعود إليه » .

---

(١) لأنه لا معنى لألفه المسجد المساوى لغيره من البيوت العادية من حيث البناء ألا لأنه محل اجتماع المسلمين لأداء العبادة فيه لله عز وجل ولذلك يألفه الله تعالى أى يحبه ويرضى عنه بغفران الذنوب أو زيادة الأجر والثواب والحسنات .

(٢) لانشغاله بعبادة الله تعالى فينال على القرب المعنوى وإلا فإن المجالسة المعروفة فى البشر مستحيلة فى حقه تعالى لما ينشأ عنها من التجسيم ومشابهة الحوادث تعالى عن ذلك علواً كبيراً ليس كمثله شيء وهو السميع البصير .

وإنما كانت ملازمة المسجد للطاعات مكفرة للذنوب لأن فيها مجاهدة النفس وكفاً لها عن أهوائها فإنها لا تميل إلا إلى الانتشار فى الأرض لابتغاء الكسب أو لمجالسة الناس أو لمحادثتهم أو للتنزه فى الدور الأنيقة والمساكن الحسنة ومواطن النزه ونحو ذلك، فمن حبس نفسه فى المساجد على الطاعة فهو مرابط لها فى سبيل الله مخالف لهواها وذلك من أفضل أنواع الصبر والجهاد، وهذا الجنس – أعنى ما يؤلم النفس ويخالف هواها – فيه كفارة للذنوب وإن كان لا صنع فيه للعبد كالمرض ونحوه فكيف بما كان حاصلا عن فعل العبد واختياره إذا قصد به التقرب إلى الله عز وجل ، فإن هذا من نوع الجهاد فى سبيل الله (١) الذى يقتضى تكفير الذنوب كلها ولهذا المعنى كان المشى إلى المساجد كفارة للذنوب أيضاً ، وهو نوع من الجهاد فى سبيل الله أيضاً كما خرجه الطبرانى من

---

(١) ولكن هذا كله مشروط إذا توفرت لديه أسباب المعيشة وكان يستحصل رزقه بدون مد يد أو انتظار أوساخ الناس من صدقات أو غيرها، وإلا فإن كان كذلك فلا خير فيه ولا خير فى عبادته ما دام عالة على الناس مشغول القلب بما يقتات به، فإن هذا ولو وجد فى المسجد فإنه بعيد عنه لأن العبرة بالقلب وإن الذى يذهب لعمله وقلبه معلق بالمسجد فإن له أجر المصلين فيه إذا لم يتمكن من الحضور لأسباب مشروعة، ولا يفهمن أحد أن الله الشارع يأمر بأن يلازم الإنسان المسجد ويترك عمله فمعاذ الله أن يكون ذلك لأن دين الإسلام دين العمل ألا ترى ما فى الحديث قال: وقلبه معلق بالمساجد، أى أنه يذهب لعمله ويشتاق للمسجد ولا يترك فرصة تخوله الصلاة فى المسجد إلا ويستعملها فهذا هو أحد السبعة الذين يظلهم الله تحت ظله يوم لا ظل إلا ظله .

حديث أبى أمامة عن النبي صلى الله عليه وسلم: « الغدو والرواح إلى المساجد من الجهاد فى سبيل الله عز وجل » .

كان زياد مولى ابن عباس أحد العباد الصالحين وكان يلازم مسجد المدينة فسمعوه يوماً يعاتب نفسه ويقول لها : أين تريدين أن تذهبي إلى أحسن من هذا المسجد تريدين أن تبصرى دار فلان ودار فلان ، لما كانت المساجد فى الأرض بيوت الله أضافها الله إلى نفسه تشريفاً لها، وتعلقت قلوب المحبين لله عز وجل بها لنسبتها إلى محبوبهم ، وارتاحت إلى ملازمتها لإظهار ذكره فيها قال تعالى : ( فى بيوت أذن الله أن ترفع ويذكر فيها اسمه يسبح له بالغدو والآصال رجال لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة يخافون يوماً تتقلب فيه القلوب والأبصار ).

أين يذهب المحبون عن بيوت مولاهم ، قلوب المحبين ببيوت محبوبهم متعلقة وأقدام العابدين إلى بيوت معبودهم مترددة .

ياحبذا العرعر النجدى والبان ... ودار قوم بأكناف الحمى بانوا
وأطيب الأرض ما للقلب فيه هوى ... سم الخياط مع الأحباب ميدان
لا يذكر الرمل إلا حن مغترب ... له بذى الرمل أوطار وأوطان
يهفو إلى البان من قلبي نوازعه ... وما بى البان بل من داره البان

## الفصل الثانى

## فى ذكر الدرجات المذكورة

فى حديث معاذ الدرجات ثلاث : أحدها إطعام الطعام وقد جعله الله فى كتابه من الأسباب الموجبة للجنة ونعيمها قال الله عز وجل : (ويطعمون الطعام على حبه مسكيناً ويتيماً وأسيراً * إنما نطعمكم لوجه الله لا نريد منكم جزاء ولا شكوراً * إنا نخاف من ربنا يوماً عبوساً قمطريرا * فوقاهم الله شر ذلك اليوم ولقاهم نضرة وسروراً * وجزاهم بما صبروا جنة وحريراً * متكئين فيها على الأرائك لا يرون فيها شمساً ولا زمهريراً * ودانية عليهم ظلالها وذللت قطوفها تذليلا * ويطاف عليهم بآنية من فضة وأكواب كانت قواريرا * قواريرا من فضة قدروها تقديراً * ويسقون فيها كأساً كان مزاجها زنجبيلا * عيناً فيها تسمى سلسبيلا ) إلى قوله : ( وسقاهم ربهم شراباً طهوراً ) فوصف فاكهتهم وشرابهم جزاء لإطعامهم الطعام ، وفى الترمذى من حديث أبى سعيد الخدرى عن النبى صلى الله عليه وسلم قال : « أيما مؤمن أطعم مؤمناً على جوع أطعمه الله من ثمار الجنة ومن سقى مؤمناً على ظمأ سقاه الله من الرحيق المختوم » وفى المسند ، والترمذى عن على عن النبى صلى الله عليه وسلم قال : « إن فى الجنة غرفاً يرى ظاهرها من باطنها وباطنها من ظاهرها قالوا لمن هى يارسول الله ؟

قال : لمن أطعم الطعام وأطاب الكلام وصلى بالليل والناس نيام » (١) وفى حديث عبد الله بن سلام الذى خرجه أهل السنن أنه سمع النبى صلى الله عليه وسلم أول قدومه المدينة يقول : « أيها الناس أفشوا السلام وأطعموا الطعام وصلوا الأرحام وصلوا بالليل والناس نيام تدخلوا الجنة بسلام » . وفى حديث عبادة عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه سئل أى الأعمال أفضل ؟ قال : « إيمان بالله وجهاد فى سبيله وحج مبرور وأهون من ذلك إطعام الطعام ولين الكلام » . خرجه الإمام أحمد . وفى حديث هانئ بن يزيد أن رجلا قال : يارسول الله دلنى على عمل يدخلنى الجنة ويباعدنى من النار قال : « تطعم الطعام وتفشى السلام » وفى حديث حذيفة عن النبى صلى الله عليه وسلم قال : « من ختم له بإطعام مسكين دخل الجنة »

---

(١) أقول هذه الأمور الثلاثة دالة على إخلاص العبودية الصرفة فإن من أطعم الطعام علم أن أخاه المسلم فى حاجة واعتقد بصحة الأخوة امتثالا لقول الله تعالى : ( إنما المؤمنون أخوة ) لهذا أطعم الطعام وعلم أنه لا يملك من هذه الحياة إلا ما أكله وشربه ولا يبقى له ألا ما تصدق به فاغتنم هذهالفرصة وأراد أن يخزن له ثروة تنفعه يوم لا ينفع فيه مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم ، فلولا اعترافه بالعبودية لما قام بأداء ما يجب لها ، وإطابة الكلام لينه لأخيه حيث قد آمن بقول الله وعرف ما كان هو عليه من مذرة إلى علقة إلى مضغة خرج من محل البول مرتين ويحمل القذر فى جوفه كل وقت لهذا تباعد عن الكبر والغرور فألان القول لإخوانه امتثالا لما أمره الله من الخضوع وإظهار السكينة ، وصلاة الليل والناس نيام لا غبار على دعوى إخلاصها لله تعالى فلا يبعد أن يكرم الله هذا الشخص بأكثر مما ورد فى الحديث الشريف مكافأة له على طاعته وكرما من الله الكريم الرحمن .

وفى الصحيحين من حديث عبد الله بن عمرو: « أن رجلا قال : يارسول الله أى الإسلام خير ؟ قال : تطعم الطعام وتقرئ السلام على من عرفت ومن لم تعرف » (١) وفى حديث صهيب عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « خيركم من أطعم الطعام » (٢) خرجه الإمام أحمد .

فإطعام الطعام يوجب دخول الجنة ويباعد من النار وينجى منها كما قال تعالى : ( فلا اقتحم العقبة * وما أدراك ماالعقبة * فك رقبة * أو إطعام فى يوم ذى مسغبة * يتيماً ذامقربة * أو مسكيناً ذا متربة(٣)

---

(١) ليكون أدل على صحة اعتبارك المسلمين إخواناً تهدئ روعهم بكلمة السلام التى هى الأمام وتجعلها فاتحة للكلام الذى يجر إلى التعارف فالمودة والمحبة وهذا من أعظم المطالب التى أرادتها منا الشريعة ، وبعبارة أخرى أنها كلمة التعارف بين المسلمين فلا ينبغى أن تهمل أو تضيع لأنها العلامة المميزة ومقدمة ترويج الشئون الاجتماعية .

(٢) وذلك لأنه قام بعمل صحيح إذ أن إفشاء السلام وغيره لا مشقة فيه على النفس المجبولة على الشح والطمع وإطعام الطعام ينافى هذا فهو إذن خير لما يحصل فى سبيل عمله من جهاد النفس ولكن كما فى الآية أن يكون على حبه تعالى لا نريد منكم جزاء ولا شكوراً .

(٣) ما أحلى هذا الترتيب البديع وما أدق ما يدل عليه من الحقائق والمقاصد العالية وتقديم الأهم إلى درجة يحار الإنسان فيها ويعسر على اليراع أن يفصح عنها فقدم فك الرقبة لما فيه من تخليص أخيه من ربقة مصيبة استعباد إنسان مثله كان مستحقاً له بوقوفه أمام نشر دعوة الدين ومحاربته الفضيلة والتعاليم وعدم رضوخه للحق بل خاصمه وحاربه وجعلت عبوديته مسلسلة للأبناء كى يتأخر الإنسان عن التعدى على الحق لأنه إذا علم أن المصيبة تسرى إلى أبنائه فإنه يحجم عن مجادلة دين الله ولهذا أجعل الله أعظم أعمال الإنسان وإشرقها عتق رقبة فحث عليها كثيراً وعدها من أشرف الأعمال الصالحات وجعلها أول الكفارات فى الإيمان والظهار وقتل الخطأ ثم ثنى=

وفى الحديث الصحيح عن النبى صلى الله عليه وسلم: « اتقوا النار ولو بشق تمرة » (١).

وكان أبو موسى الأشعرى رضى الله عنه يقول لولده: اذكروا صاحب الرغيف ثم ذكر أن رجلا من بنى إسرائيل عبد الله سبعين سنة ثم إن الشيطان حسن فى عينيه امرأة فأقام معها سبعة أيام ثم خرج هارباً فأقام مع مساكين فتصدق عليهم برغيف كان بعض أولئك المساكين يريده فآثره به ثم مات فوزن عبادته بالسبعة الأيام التى مع المرأة فرجحت الأيام السبعة بعبادته ثم وزن الرغيف بالسبعة أيام فرجح بها.

ويتأكد إطعام الطعام للجائع وللجيران خصوصاً، وفى الصحيح عن أبى موسى الأشعرى عن النبى صلى الله عليه وسلم قال: « أطعموا الجائع وعودوا المريض وفكوا العانى ». وفى صحيح مسلم عن أبى ذر عن النبى صلى الله عليه وسلم قال له: « يا أبا ذر إذا طبخت مرقة فأكثر ماءها وتعاهد جيرانك » وفى المسند.

---

بالصدقات وإطعام الفقراء وجعلهم قسمين يتيما وهو الطفل القريب وقدمه لما يمت إليه من العجز الظاهر بسبب الفقر وبالقرابة وأتى بعده بالمسكين الذى لا يملك شيئاً لأن المقصود إعطاء المحتاج لا فرق بين صغير وكبير.

(١) أى فلا ينبغى ألا يتصدق الإنسان بما يراه بعينه حقيراً إذ يجوز أن تنجم عن هذا الأمر الذى يعده تافهاً أشياء عظيمة فإن شق التمرة لمن بلغ غاية الجوع يجوز أن يكون سبب حياته ومن أحياها فكأنما أحيا الناس جميعاً وليس فى الدنيا شىء إلا وله لزوم إذ لم يخلق الله شيئاً عبثاً فليس المدار على كثرة الصدقات وقلتها وإنما المدار على الإخلاص فيها لوجه الله تعالى وتحرى المستحقين لها وإعطائهم.

وصحيح ابن حبان عن عمر عن النبى صلى الله عليه وسلم قال : « أيما عرصة أصبح فيهم امرؤ جائعاً فقد برئت منهم ذمة الله عز وجل » (١) وقال صلى الله عليه وسلم : « لا يشبع المؤمن دون جاره » وفى صحيح الحاكم عن ابن عباس عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: « ليس بالمؤمن الذى يشبع وجاره جائع » وفى رواية: « ما آمن من بات شبعاناً وجاره طاوياً » .

فأفضل أنواع إطعام الطعام الإيثار مع الحاجة كما وصف الله تعالى بذلك الأنصار رضى الله عنهم فقال : ( ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة ) . وقد صح أن سبب نزولها أن رجلا منهم أخذ ضيفاً من عند النبى صلى الله عليه وسلم يضيفه فلم يجد عنده إلا قوت صبيانه فاحتال هو وامرأته حتى نوما صبيانهما وقام إلى السراج كأنه يصلحه فأطفأه ثم جلس مع الضيف يريه أنه يأكل معه ولم يأكل فلما غدا على رسول الله صلى الله عليه وسلم قال له : عجب اللهمن صنيعكما الليلة ونزلت هذه الآية .

وكان كثير من السلف يؤثر بفطوره غيره وهو صائم ويصبح صائماً ، منهم عبد الله بن عمر رضى الله عنهما . وداود الطائى .

---

(١) وذلك لأنهم فقدوا الشفقة والرحمة فإذا كان من يعيش معهم وفى وسطهم جائعاً لا يعطفون عليه ولا يتحننون عليه فلا شك أنهم لا يؤدون الحقوق الإلهية ولا يمتثلون أوامر الشريعة ويكونون مستحقين لأن يتبرأ الله منهم ويحل عليهم سخطه وعذابه وتتجرد منه الإنسانية .

وعبد العزيز بن سليمان . ومالك بن دينار . وأحمد بن حنبل ، وغيرهم ، وكان ابن عمر لا يفطر إلا مع اليتامى والمساكين (١) وربما علم أن أهله قد ردوهم عنه فلم يفطر تلك الليلة ، ومنهم من كان لا يأكل إلا مع ضيف له ، قال أبو السوار العدوى : كان رجال من بنى عدى يصلون فى هذا المسجد ما أفطر أحد منهم على طعام قط وحده إن وجد من يأكل معه أكل وإلا أخرج طعامه إلى المسجد، فأكله مع الناس وأكل الناس معه ، وكان منهم من يطعم إخوانه الطعام وهو صائم ويجلس يخدمهم ويروحهم ، منهم الحسن ، وابن المبارك ، وكان ابن المبارك ربما يشتهى الشىء فلا يصنعه إلا لضيف ينزل به فيأكله مع ضيفه ، وكان كثير منهم يفضل إطعام الإخوان على الصدقة على المساكين ، وقد روى هذا المعنى مرفوعاً من حديث أنس بإسناد ضعيف ولا سيما إن كان الإخوان لا يجدون مثل ذلك الطعام كان بعضهم يعمل الأطعمة الفاخرة ثم يطعمها إخوانه الفقراء ويقول : إنهم لا يجدونها ، وبعضهم يصنع له طعاماً ولا يأكل ويقول إنى لا أشتهيه وإنما صنعته لأجلكم ، وبعضهم اتخذ حلاوة فأطعمها المعتوه فقال له أهله إن هذا لا يدرى ما يأكل فقال لكن الله يدرى .

واشتهى الربيع بن خيثم حلواء فلما صنعت له دعا بالفقراء

---

(١) يمرن غيره على الخضوع والتواضع ويبين أن الناس متساوون فى كل شىء غير التقوى والعمل الصالح ولكن لا يحتقر الرجل لصغر سنه أو فقره فإنه عبد لله والله يؤتى الفضل من يشاء وأن الفضل هو فى إخلاص العمل لله تعالى .

فاكلوا فقال له أهله أتعبتنا ولم تأكل.فقال ومن أكله غيرى(١) وقال آخر منهم وجرى له نحو من ذلك : إذا أكلته كان فى الحش وإذا أطعمته كان عند الله مدخوراً .

وروى عن على قال : لأن أجمع أناساً من إخوانى على صاع من طعام أحب إلى من أن أدخل سوقكم هذه فأبتاع نسمة فأعتقها . وعن أبى جعفر محمد بن على قال : لأن أدعو عشرة من أصحابى فأطعمهم طعاماً يشتهونه أحب إلى من أن أعتق عشرة من ولد إسماعيل . أأصف الإيثار لمن يبخل بأداء الحقوق الواجبة عليه، أأطلب الشجاعة من الجبان وأستشهد على رؤية الهلال من هو من جملة العميان كم بين من قيل فيه : ( فلما آتاهم من فضله بخلوا به ) وبين من قيل فيه : ( ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة ) بيننا وبين القوم كما بين اليقظة والنوم .

لا تعرضن لذكرنا فى ذكرهـم ليس الصحيح إذا مشى كالمقعد

فيامن يطمع فى علو الدرجات من غير عمل صالح هيهات هيهات ( أم حسب الذين اجترحوا السيئات أن نجعلهم كالذين آمنوا وعملوا الصالحات ) .

نزلوا بمكة فى قبائل نوفـــــل ونزلت بالبيداء أبعد منزل

---

(١) لأنه باق لا يفنى محفوظ عند الله تعالى وما عند الله خير وأبقى .

# الفصل الثالث

## ذكر لين الكلام

من الدرجات لين الكلام وفى رواية « إفشاء السلام » وهو داخل فى لين الكلام وقد قال الله عز وجل : ( وقولوا للناس حسناً ( وقال تعالى : ( وقل لعبادى يقولوا التى هى أحسن ( وقال تعالى . ( ادفع بالتى هى أحسن السيئة فإذا الذى بينك وبينه عداوة كأنه ولى حميم *وما يلقاها إلا الذين صبروا وما يلقاها إلا ذو حظ عظيم ( وقال تعالى : ( وجادلهم بالتى هى أحسن ( وقال تعالى : ( ولا تجادلوا أهل الكتاب إلا بالتى هى أحسن إلا الذين ظلموا منهم ) ولما قال النبى صلى الله عليه وسلم : « الحج المبرور ليس له جزاء إلا الجنة قالوا له وما الحج المبرور يارسول الله ؟ قال : إطعام الطعام ولين الكلام » خرجه الإمام أحمد وقد تقدم فى ذكر إطعام الطعام أحاديث أخرى فى طيب الكلام . وفى الحديث الصحيح عن النبى صلى الله عليه وسلم : « والكلمة الطيبة صدقة » وفيه أيضاً: « اتقوا النار ولو بشق تمرة فمن لم يجد فبكلمة طيبة » .

وأما كون إفشاء السلام من موجبات الجنة ففى صحيح مسلم عن أبى هريرة عن النبى صلى الله عليه وسلم قال : « والذى نفسى بيده لا تدخلوا الجنة حتى تؤمنوا ولا تؤمنوا حتى تحابوا ألا أدلكم على شيء إذا فعلتموه تحاببتم أفشوا السلام فيما بينكم » وخرج

أبو داود من حديث أبى أمامة عن النبى صلى الله عليه وسلم قال : « إن أولى الناس بالله تعالى من بدأهم بالسلام » ويروى من حديث ابن مسعود مرفوعاً وموقوفاً: « إذا مر الرجل بالقوم فسلم عليهم فردوا عليه كان له عليهم فضل درجة لأنه ذكرهم بالسلام وإن لم يردوا عليه رد عليه ملأ خير منهم وأطيب » .

وقد روى من حديث عمران بن حصين وغيره: « أن رجلا دخل على النبى صلى الله عليه وسلم فقال : السلام عليكم فقال : النبى صلى الله عليه وسلم عشر . ثم جاء آخر فقال السلام عليكم ورحمة الله فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم عشرون، ثم جاء آخر فقال السلام عليكم ورحمة الله وبركاته فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم ثلاثون » خرجه الترمذى وغيره وخرجه أبو داود وزاد: « ثم جاء آخر فقال السلام عليكم ورحمة الله وبركاته ومغفرته فقال النبى صلى الله عليه وسلم أربعون، ثم قال هكذا تكون الفضائل » وقد سبق حديث أن تقرأ السلام على من عرفت ومن لم تعرف (١)

(١) لأنه برهان ساطع على إخلاص الرجل وأنه يريد بسلامه وجه الله تعالى لم تدفعه المعرفة بسابق طمع أو رهبة وإنما غايته التعارف الإسلامى فإن هذه الكلمة علامة خاصة للإسلام ومن خير الوسائل للمعرفة التى جاءت كثير من الفروض الإسلامية مقوية لها وطالبة بها انتشارها بين المسلمين خشية من وصولهم إلى حالتهم اليوم حيث أصبحوا يجهلون بعضهم ولا يعرفون ما يجرى فى محل إقامتهم وقد بلغ من بعضهم أنه لا يدرى إلا بما فى داره أو ما يصادفه فى الطريق عن عرض ظناً منه أن هذا ورع أو أنه عبادة مع أن الدين أن تعرف إخوانك المسلمين فى الأقطار كافة وتجتهد فى التعارف معهم وإن لم تعرفهم بمسائل مادية أو علاقة نفسية فإن علاقة الدين خير علاقة ونسبه أشرف الأنساب وأخوته هى الأخوة الحقيقية المقصودة .

وفى حديث ابن مسعود مرفوعاً : « من أشراط الساعة السلام بالمعرفة » (١) خرجه الإمام أحمد .

وإنما جمع بين إطعام الطعام ولين الكلام ليكمل بذلك الإحسان إلى الخلق بالقول والفعل فلا يتم الإحسان بإطعام الطعام إلا بلين الكلام وإفشاء السلام فإن أساء بالقول بطل الإحسان بالفعل من الإطعام وغيره كما قال الله تعالى : ( يا أيها الذين آمنوا لا تبطلوا صدقاتكم بالمن والأذى ) .

وربما كان معاملة الناس بالقول الحسن أحب إليهم من إطعام الطعام والإحسان بإعطاء المال ، كما قال لقمان لابنه : يابنى لأن تكن كلمتك طيبة ووجهك منبسطاً تكن أحب إلى الناس ممن يعطيهم الذهب والفضة ، وقد كان النبى صلى الله عليه وسلم يلين القول حتى لمن يشهد له بالشر فينتفى بذلك شره ، وكان صلى الله عليه وسلم لا يواجه أحداً بما يكره فى وجهه ولم يكن صلى الله عليه وسلم فحاشاً ولا متفحشاً ، وروى عن ابن عمر أنه كان ينشد .

---

(١) كأنه لا يريد أن يعترف بإسلام شخص لا علاقة له مادية وقد وقع هذا فى هذا العصر ولا سيما فى مصر حتى أن علماء الدين أنفسهم لا يسلمون إلا على من يعرفونه ولا شك أن هذا دليل انقطاع وسبب من أسباب تخاذل المسلمين إلى أن صاروا مستعبدين فى الأرض لا حول لهم ولا طول بالنسبة لقوة أعدائهم اليوم والذين كانوا تحت سيطرة ونفوذ أسلافهم وكل هذا هدم اهتمامهم بمثل هذه الدقائق التى تطلبها الشريعة بشدة وإلحاح وما تغنى الآيات والنذر ؟ إنا لله وإنا إليه راجعون .

بني إن البر شيء هـين وجـه طليق وكلام لـين

ولبعضهم :

خذ العفو وأمر بعرف كما أمرت وأعرض عن الجاهلين
ولن فى الكلام لكل الأنام فمستحسن من ذوى الجاه لين

وقد وصف الله عز وجل فى كتابه أهل الجنة بمعاملة الخلق بالإحسان بالمال واحتمال الأذى فقال تعالى : ( وسارعوا إلى مغفرة من ربكم وجنة عرضها السموات والأرض أعدت للمتقين * الذين ينفقون فى السراء والضراء والكاظمين الغيظ والعافين عن الناس والله يحب المحسنين ) فالإنفاق فى السراء والضراء يقتضى غاية الإحسان بالمال من الكثرة والقلة ، وكظم الغيظ والعفو عن الناس يقتضى عدم المقابلة على السيئة من قول وفعل وذلك يتضمن الإلانة القول واجتناب الفحش والإغلاظ فى المقال ولو كان مباحاً ، وهذا نهاية الإحسان فلهذا قال تعالى : ( والله يحب المحسنين ) .

ومن هذا قول بعضهم وقد سئل عن حسن الخلق فقال : بذل الندى وكف الأذى وهذا الوصف المذكور فى القرآن أكمل من هذا لأنه وصفهم ببذل الندى واحتمال الأذى ، وحسن الخلق يبلغ به العبد درجات المجتهدين فى العبادة كما قال النبي صلى الله عليه وسلم : « إن الرجل ليدرك بحسن خلقه درجة الصائم النهار القائم الليل » ورؤى بعض السلف فى المنام فسئل عن بعض إخوانه الصالحين فقال : وأين ذلك رفع فى الجنة بحسن خلقه .

ومما يندب إلى الإلانة القول فيه الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر وأن يكون برفق كما قال تعالى فى حق الكفار : ( وجادلهم بالتى هى أحسن ) قال بعض السلف : ما أغضبت أحد فقبل منك (١) وكان أصحاب ابن مسعود إذا رأوا قوماً على ما يكره يقولون لهم مهلا مهلا بارك الله فيكم . ورأى بعض التابعين رجلا واقفاً مع امرأة فقال لهما : « إن الله يراكما سترنا الله وإياكما » ودعى الحسن إلى دعوة فجيء بآنية فضة فيها حلواء فأخذ الحسن الحلواء فقلبها على رغيف وأكل منها فقال بعض من حضر هذا نهى فى سكون ، ورأى الفضيل رجلا يعبث فى صلاته فزبره فقال له الرجل : ياهذا ينبغى لمن يقوم لله أن يكون ذليلا ،فبكى الفضيل وقال له: صدقت ، قال شعيب بن حرب : ربما مر سفيان الثورى بقوم يلعبون بالشطرنج فيقول ما يصنع هؤلاء ؟ فيقال له: يا أبا عبد الله ينظرون فى كتاب فيطاطىء رأسه ويمضى وإنما يريد بذلك ليعلم أنه قد أنكر . وقال سفيان لا يأمر بالمعروف ولا ينهى عن المنكر إلا من كان فيه خصال ثلاث : رفيق بما يأمر ، رفيق بما ينهى ، عدل بما يأمر ، عدل بما ينهى ، عالم بما يأمر ، عالم بما ينهى . وقال الإمام أحمد الناس يحتاجون إلى مداراة ورفق فى الإمر بالمعروف

---

(١) لأنها فرصة يستفيدها الهوى والشيطان فيسوقه إلى العناد والإصرار على الخطأ والسير فى الضلالة فتكون سبباً فى أذيته من حيث إنك أردت منفعته ودفعاً لوقوع مثل هذا الذى يكثر حصوله عادة أمرنا الله بقوله : ( وجادلهم بالتى هى أحسن ) .

بلا غلظة إلا رجلا معلنا بالفسق فإنه لا صبر عليه . وكان كثير من السلف لا يأمر بالمعروف ولا ينهى عن المنكر إلا سراً فيما بينه وبين من يأمره وينهاه (١) وقال أبو الدرداء : من وعظ أخاه سراً فقد زانه ومن وعظه علانية فقد شانه .

وكذلك مقابلة الأذى بإلانة القول كما قال تعالى : ( ادفع بالتي هي أحسن السيئة ) وقال تعالى : ( ويدرءون بالحسنة السيئة أولئك لهم عقبى الدار ) قال بعض السلف : هو الرجل يسبه الرجل فيقول له: إن كنت صادقاً فغفر الله لى: وإن كنت كاذباً فغفر الله لك: قال رجل لسالم بن عبد الله وقد زحمت راحلته فى سفر : ما أراك إلا رجل سوء. فقال له سالم : ما أراك أبعدت . وقالت امرأة لمالك بن دينار : يامرائى. قال: متى عرفت اسمى ؟ ما عرفه أحد من أهل البصرة غيرك . ومر بعضهم على صبيان يلعبون بجوز فوطئ على بعض الجوز بغير اختياره فكسره فقال له الصبي : ياشيخ النار. فجلس الشيخ يبكى ويقول: ما عرفنى غيره . ومر بعضهم مع أصحابه فى طريق فرموا عليهم رماداً فقال الشيخ لأصحابه: من يستحق النار فصالحوه على الرماد يعنى فهو رابح . ورأى

---

(١) لينفذ قوله إلى أعماق قلبه وهذا دليل على أن الناصح غايته النصح وأن يعدل عن غيه إلى الطريق الصواب، لهذا يكلمه سراً وغالب الذين يظهرون القسوة والغلظة عند النهى يريدون أن يظهروا فضلهم أو علمهم أو تقواهم أو أنهم يحسنون القول وهذا نوع من الرياء حفظنا الله منه ، وجماع هذا ما قاله أبو الدرداء رضى الله عنه بعد هذه العبارة .

ورأى جندى إبراهيم بن أدهم خارج البلد فسأله عن العمران فأشار له إلى القبور فضرب رأسه ومضى فقيل له إنه إبراهيم ابن أدهم فرجع يعتذر إليه فقال له إبراهيم الرأس الذى يحتاج إلى اعتذارك تركته ببلخ ، ومر به جندى آخر وهو ينظر بستاناً لقوم بأجرة فسأله أن يناوله شيئاً فلم يفعل وقال إن أصحابه لم يأذنوا فى ذلك فضرب رأسه فجعل إبراهيم يطأطئ رأسه وهو يقول اضرب رأساً طالما عصى الله .

من أجلك قد جعلت خدى أرضا للشامت والحسود حتى ترضى

( **الثالث من الدرجات** ) الصلاة بالليل والناس نيام فالصلاة بالليل من موجبات الجنة كما سبق ذكره فى غير حديث وقد دل عليه قوله عز وجل : ( إن المتقين فى جنات وعيون آخذين ما آتاهم ربهم إنهم كانوا قبل ذلك محسنين ، كانوا قليلا من الليل ما يهجعون ، وبالأسحار هم يستغفرون ، وفى أموالهم حق للسائل والمحروم) فوصفهم بالتيقظ بالليل والاستغفار بالأسحار وبالإنفاق من أموالهم .

كان بعض السلف نائماً فأتاه آت فى منامه فقال له : قم فصل أما علمت أن مفاتيح الجنة مع أصحاب الليل هم خزانها وقيام الليل يوجب علو الدرجات فى الجنة قال الله تعالى لنبيه صلى الله عليه وسلم : ( ومن الليل فتهجد به نافلة لك عسى أن يبعثك ربك مقاماً محموداً ) فجعل جزاءه على التهجد بالقرآن بالليل أن يبعثه المقام المحمود

وهو أعلى درجاته صلى الله عليه وسلم . قال عون بن عبدالله : إن الله يدخل الجنة أقواماً فيعطيهم حتى يملوا وفوقهم ناس فى الدرجات العلى فلما نظروا إليهم عرفوهم فقالوا : ربنا إخواننا كنا معهم فبم فضلتهم علينا ؟ فيقول هيهات إنهم كانوا يجوعون حين تشبعون ويظمئون حين تروون ويقومون حين تنامون ويشخصون حين تخفضون ، ويوجب أيضاً نعيم الجنة ما لم يطلع عليه العباد فى الدنيا قال الله عز وجل : ( تتجافى جنوبهم عن المضاجع يدعون ربهم خوفاً وطمعاً ومما رزقناهم ينفقون فلا تعلم نفس ما أخفى لهم من قرة أعين جزاء بما كانوا يعملون ) وفى الصحيح عن النبى صلى الله غليه وسلم قال يقول الله عز وجل : « أعددت لعبادى الصالحين مالا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشرا قرءوا إن شئتم ( فلا تعلم نفس ما أخفى لهم من قرة أعين جزاء بما كانوا يعملون ) » قال بعض السلف : أخفوا الله العمل فأخفى الله لهم الجزاء فلو قدموا عليه لأقر تلك الأعين عنده .

ومما يجزى به المتهجدين فى الليل كثرة الأزواج من الحور العين فى الجنة فإن المتهجد قد ترك لذة النوم بالليل ولذة التمتع بأزواجه طلباً لما عند الله عز وجل فعوضه الله تعالى خيراً مما تركه وهو الحور العين فى الجنة ، ومن هنا قال بعضهم : طول التهجد مهور الحور العين فى الجنة ، وكان بعض السلف يحيى الليل بالصلاة

ففتر عن ذلك فأتاه آت فى منامه فقال له قد كنت يافلان تدأب فى الخطبة فما الذى قصر بك عن ذلك ؟ قال وما ذلك ؟ قال كنت تقوم من الليل أو ما علمت أن المتهجد إذا قام إلى التهجد قالت الملائكة : قد قام الخاطب إلى خطبته .

ورأى بعضهم فى منامه امرأة لا تشبه نساء الدنيا فقال لها : من أنت ؟ قالت: حوراء أمة الله فقال لها زوجينى نفسك. قالت: اخطبنى إلى سيدى وأمهرنى. قال: ومامهرك ؟ قالت: طول التهجد.
قام بعض المتهجدين ذات ليلة فرأى فى منامه حوراء تنشد :

أتخطب مثلى وعنى تنام ونوم المحبين عنا حرام
لأنا خلقنا لكل امرئ كثير الصلاة براه الصيام

وكان لبعض السلف ورد من الليل فنام عنه فرأى فى منامه جارية كأن وجهها القمر ومعها رق فيه كتاب ، فقالت : أتقرأ ؟ قال : نعم . فأعطته إياه ففتحه فإذا فيه مكتوب :

أتلهو بالكرى عن طيب عيش مع الخيرات فى غرف الجنان
تعيش مخلداً لا موت فيـــــه وتنعم فى الجنــــان مع الحسان
تيقظ من منامك أن خيراً من النوم التهجد بالقـــران

فاستيقظ قال : فوالله ما ذكرتها إلا ذهب عنى النوم .

كان بعض الصالحين له رود فنام عنه فوقف عليه فتى فى منامه فقال له بصوت محزون :

تيقظ لساعات من الليل يافتى لعلك تحظى فى الجنان بحورها
فتنعم فى دار يدوم نعيمهـــا محمد فيهـــا والخليل يزورها
فقم فتيقظ ساعة بعد ساعـــــة عساك توفى مابقى من مهورها

كان بعض السلف الصالحين كثير التعبد فبكى شوقاً إلى الله عز وجل ستين سنة فرأى فى منامه كأنه على ضفة نهر يجرى بالمسك حافتاه شجر لؤلؤ ونبت من قضبان الذهب فإذا بجوار مزينات يقلن بصوت واحد : سبحان المسبح بكل لسان سبحانه . سبحان الموحد بكل مكان سبحانه . سبحان الدائم فى كل الأزمان سبحانه . فقال لهن : ما تصنعن ههنا ؟ فقلن :

برانا إلـــــه الناس رب محمد لقوم على الأقدام بالليل قوم
يناجون رب العـــالمين إلههم وتسرى هموم القوم والناس نوم

فقال : بخ بخ لهؤلاء . من هم ؟ لقد أقر الله أعينهم بكن . فقلن : أو ما تعرفهم ؟ قال : لا . فقلن : بلى هؤلاء المتهجدون أصحاب القرآن والسهر .

وكان بعض الصالحين ربما نام فى تهجده فتوقظه الحوراء فى منامه فيستيقظ بإيقاظها . وروى عن أبى سليمان الدارانى أنه قال : ذهب بى النوم ذات ليلة فى صلاتى فإذا بها — يعنى الحوراء — تنبهنى وتقول : يا أبا سليمان أترقد وأنا أربى لك فى الخدر منذ خمسمائة سنة ؟ وفى رواية عنه أنه نام ليلة فى سجوده قال : فإذا

بها قد ركضتني برجلها وقالت : حبيبي أترقد عيناك والملك يقظان ينظر إلى المتهجدين فى تهجدهم بؤساً لعين آثرت لذة نوم على مناجاة العزيز ، قم فقد دنا الفراغ ولقى المحبون بعضهم بعضاً فما هذا الرقاد يا حبيبي وقرة عيني ؟ أترقد عيناك وأنا أربى لك فى الخدور منذ خمسمائة عام ؟ فوثب فزعاً وقد عرق من توبيخها له . قال : وإن حلاوة منطقها لفى سمعى وقلبي .

وكان أبو سليمان يقول : أهل الليل فى ليلهم ألذ من أهل اللهو فى لهوهم(١) ، ولولا الليل ما أحببت البقاء فى الدنيا ، وقال يزيد الرقاشي لحبيب العجمى : ما أعلم شيئاً أقر لعيون العابدين فى الدنيا من التهجد فى ظلمة الليل ، وما أعلم شيئاً من نعيم الجنان وسرورها ألذ عند العابدين ولا أقر لعيونهم من النظر إلى ذى الكبرياء العظيم

---

(١) وذلك لأن أهل الليل طامعون فى مرضاة الله تعالى وهو دائم لا يزول ولا يفنى لا تخفى عليه خافية مما يعلنون وما يسرون فهم متيقنون أن كل ما أضمرته نفوسهم أو عملته جوارحهم ولم يطلع عليه أحد سواهم فالله عالم به وخبير بمكانهم ومناجاتهم وقد نسوا الجسد وأقبلوا على تصفية الروح وتخليصها من الأكدار فهاموا بنور المعرفة وثملوا من رحيق الوصول الذى كافأهم ربهم به على عبادتهم فلا بدع أن يكونوا ألذ من أهل اللهو الذين لذتهم بدوام مدة اللهو ولا يجهل أحد قصرها وما ينجم عنها من الندم والعض على الأصبع والمشاجرة والنزاع والخصام وإن تسنى للاهى أن ينال فى لحظة لذة فلا يستفيد منها إلا جسده وأما الروح فإنها فى سجن ضيق وكرب عظيم لما تدرى أن النتيجة هى خسران فى الدنيا وعذاب فى الآخرة فينادى لسان حالها طوبى للعباد لذة فى الدنيا ونعيم فى عقباهم ورضاء سيدهم ومولاهم ذى الجلال والإكرام عليهم .

إذا رفعت تلك الحجب وتجلى لهم الكريم فصاح حبيب عند ذلك وخر مغشياً عليه .

وكان السرى يقول : رأيت الفوائد ترد فى ظلام الليل . وقال أبو سليمان : إذا جن الليل وخلا كل محب بحبيبه افترش أهل المحبة أقدامهم وجرت دموعهم على خدودهم أشرف الجليل جل جلاله فنادى يا جبريل بعينى من تلذذ بكلامى واستروح إلى مناجاتى ، ناد فيهم ياجبريل ما هذا البكاء ؟ هل رأيتم حبيباً يعذب أحباءه ؟ أم كيف يجمل بى أن أعذب قوماً إذا جنهم الليل تملقونى ؟ فبى حلفت إذا قدموا على يوم القيامة لأكشفن لهم عن وجهى ينظرون إلى وأنظر إليهم .

وسئل الحسن البصرى لم كان المتهجدون أحسن الناس وجوها ؟ قال : لأنهم خلوا بالرحمن فألبسهم نوراً من نوره . رأت امرأة من الصالحات فى منامها كأن حللا قد فرقت على أهل مسجد محمد بن جحادة ، فلما انتهى الذى يفرقها إليه دعا بسفط مختوم فأخرج منه حلة صفراء . قالت : فلم يقم لها بصرى فكساه إياها وقال : هذه لك بطول السهر . قالت : فوالله لقد كنت أراه — تعنى محمد بن جحادة — بعد ذلك فأتخايلها عليه — تعنى تلك الحلة — .

قال كرز بن وبرة : بلغنى أن كعباً قال : إن الملائكة ينظرون من السماء إلى الذين يتهجدون بالليل كما تنظرون إلى نجوم السماء .

يانفس فاز الصالحون بالتـــقى وأبصروا الحق وقلبى قد عمى
ياحسنهم والليل قد أجـــنهم ونورهم يفوق نور الأنجم
ترنموا بالذكر فى ليلـــهم فعيشهم قد طاب بالترنم
قلوبهم للذكر قد تفرغـــت دموعهم كلؤلـؤ منظم
أسحارهم بهم لهم قد أشرقـــت وخلع الغفران خير المقسم

فى بعض الآثار يقول الله عز وجل كل ليلة : ياجبريل أقم فلاناً وأنم فلاناً . قام بعض الصالحين فى ليلة باردة وكان عليه خلقان رثة فضربه البرد فبكى فسمع هاتفاً يقول : أقمناك وأنمناهم ثم تبكى علينا.

تنبهوا يا أهل وادى المنــحنى كم ذا الكرى هب نسيم وجدى
كم بين خــال وجــو وساهــر وراقــد وكاتم ومعبدى

قيل لابن مسعود ما نستطيع قيام الليل قال أبعدتكم ذنوبكم . وقيل للحسن أعجزنا قيام الليل قال : قيدتكم خطاياكم إنما يؤهل الملوك للخلوة بهم ومخاطبتهم من يخلص فى ودادهم ومعاملتهم فأما من كان من أهل مخالفتهم فلا يرضونه لذلك .

الليل لى ولأحبابى أحــادثهم قد اصطفيتم كى يسمعوا ويعوا
لهــم قلوب بأسرار لها ملئت على ودادى وإرشادى لهم طبعوا
قد أثمرت شجرات الفهم عندهم فما جنوا إذ جنوا مما به ارتفعوا
سروا فما وهنوا عجزاً وما ضعفوا وواصلوا حبل تقريبى فما انقطعو

# الفصل الرابع
## فى ذكر الدعوات

الدعوات المذكورة فى هذا الحديث وهى : «اللهم إنى أسألك فعل الخيرات وترك المنكرات وحب المساكين وأن تغفر لى وترحمنى وإذا أردت(١) بقوم فتنة فاقبضنى إليك غير مفتون وأسألك حبك وحب من يحبك وحب العمل الذى يبلغنى حبك فقال النبى صلى الله عليه وسلم : تعلموهن وادرسوهن فإنهن حق » هذا دعاء عظيم من أجمع الأدعية وأكملها فقوله صلى الله عليه وسلم : « أسألك فعل

(١) وإذا أردت بقوم فتنة – فتوفنى غير مفتون هذه الفقرة من جوامع الأدعية وفيها الخير العظيم لمن أمعن النظر بدقائقها وذلك لأنها برهان ساطع على صحة إيمان الذى دعا بها وذلك لأنه رضى بذهاب الروح من جسده وقدمها ضحية وقربانا ليتخلص من فتنة قد تكون سبباً لعذاب دائم فلولا أنه مؤمن حقاً لما فادى بحياته واختار الموت فهو مؤمن بالله واليوم الآخر والعذاب والنعيم وبلغت منه الخشية أن يختار الموت على عيشة ممزوجة بالفتنة علما أن التيار لا يمكن الوقوف أمامه فإذا حصل بقوم فتنة فإنه يعلم أن قيامه فى وجه هذه الفتنة قد لا يجديه نفعاً إذا سرى مرضها فى النفوس واشتد غضب الله عليهم ولذلك استعد للأمر قبل وقوعه وتهيأ للشدة قبل حصولها فدعا من ربه القادر وحده على تخليصه من هذه المصيبة كى لا تصيبه نار الفتنة فلا يختار الدنيا على الآخرة بل لا يرضى أن يعرض نفسه لأخطار النقمة الإلهية فما أشد إيمانه وما أخلصه لربه وما أحسن اعتقاده . فهم الحياة الدنيا أدرك معنى آية ( وما الحياة الدنيا إلا متاع الغرور ) لهذا اختار الموت قبل أن تقع الفتنة حيث يقول وإذا أردت كى لا يتلوث من أوساخها فيموت غير مفتون ليسكن جنة عرضها السموات والأرض أعدت للمتقين .

الخيرات وترك المنكرات ، يتضمن طلب كل خير وترك كل شر فإن الخيرات تجمع كل ما يحبه الله تعالى ويقرب منه من الأعمال والأقوال من الواجبات والمستحبات ، والمنكرات تشمل كل ما يكرهه الله تعالى ويباعد عنه من الأقوال والأعمال فمن حصل له هذا المطلوب حصل له خير الدنيا والآخرة ، وقد كان النبي صلى الله عليه وسلم يحب مثل هذه الأدعية الجامعة قالت عائشة : «كان النبي صلى الله عليه وسلم يعجبه الجوامع مع الدعاء ويدع ما بين ذلك» خرجه أبو داود .

وقوله : وحب المساكين هذا قد يقال إنه من جملة فعل الخيرات وإنما أفرده بالذكر لشرفه وقوة الاهتمام به كما أفرد أيضاً ذكر حب الله تعالى وحب من يحبه وحب عمل يبلغه إلى حبه وذلك أصل فعل الخيرات كلها ، وقد يقال إنه طلب من الله عز وجل أن يرزقه أعمال الطاعات بالجوارح وترك المنكرات بالجوارح وأن يرزقه ما يوجب له ذلك وهو حبه وحب من يحبه وحب عمل يبلغه حبه فهذه المحبة بالقلب موجبة لفعل الخيرات بالجوارح ولترك المنكرات بالجوارح وسأل الله تعالى أن يرزقه المحبة فيه فقد تضمن هذا الدعاء سؤال حب الله عز وجل وحب أحبابه وحب الأعمال التي تقرب من حبه والحب فيه وذلك يقتضي فعل الخيرات كلها ويتضمن ترك المنكرات والسلامة من الفتن ، وذلك يتضمن اجتناب الشر كله فجمع هذا الدعاء طلب خير الدنيا وتضمن سؤال المغفرة والرحمة وذلك يجمع خير الآخرة كله فجمع هذا الدعاء خيري الدنيا والآخرة.

والمقصود أن حب المساكين أصل الحب فى الله تعالى لأن المساكين ليس عندهم من الدنيا ما يوجب محبتهم لأجله فلا يحبون ألا الله عز وجل ،والحب فى الله من أوثق عرى الإيمان ومن علامات ذوق حلاوة الإيمان وهو صريح الإيمان وهو أفضل الإيمان ، وهذا كله مروى عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه وصف به الحب فى الله تعالى ، وروى عن ابن عباس أنه قال : « به تنال ولاية الله وبه يوجد طعم الإيمان » وحب المساكين قد أوصى به النبى صلى الله عليه وسلم غير واحد من أصحابه قال أبو ذر : أوصانى رسول الله صلى الله عليه وسلم أن أحب المساكين وأن أدنو منهم — خرجه الإمام أحمد ، وخرج الترمذى عن عائشة أن النبى صلى الله عليه وسلم قال لها : « ياعائشة أحبى المساكين وقربيهم فإن الله يقربك يوم القيامة » . ويروى أن داود عليه السلام كان يجالس المساكين ويقول يارب مسكين بين مساكين .

ولم يزل السلف الصالح يوصون بحب المساكين — كتب سفيان الثورى إلى بعض إخوانه — عليك بالفقراء والمساكين والدنو منهم فإن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يسأل ربه حب المساكين ،وحب المساكين مستلزم لإخلاص العمل لله تعالى ، والإخلاص هو أساس الأعمال الذى لا تثبت الأعمال إلا عليه ، فإن حب المساكين يقتضى إسداء النفع إليهم بما يمكن من منافع الدين والدنيا فإذا حصل إسداء النفع إليهم حبا لهم والإحسان إليهم

كان هذا العمل خالصاً وقد دل القرآن على ذلك قال الله تعالى : ( ويطعمون الطعام على حبه مسكيناً ويتيما وأسيراً إنما نطعمكم لوجه الله لا نريد منكم جزاء ولا شكوراً ) وقال عز وجل : ( ولا تطرد الذين يدعون ربهم بالغداة والعشى يريدون وجهه ما عليك من حسابهم من شىء وما من حسابك عليهم من شىء فتطردهم فتكون من الظالمين ) وقال تعالى : ( واصبر نفسك مع الذين يدعون ربهم بالغداة والعشى يريدون وجهه ولا تعد عيناك عنهم تريد زينة الحياة الدنيا ) .

قال سعد بن أبى وقاص : نزلت هذه الآية فى :ستة فى ، وفى ابن مسعود، وصهيب ، وعمار ، والمقداد ، وبلال . قالت قريش لرسول الله صلى الله عليه وسلم : إنا لا نرضى أن نكون أتباعاً لهم فاطردهم عنك فأنزل الله عز وجل : ( ولا تطرد الذين يدعون ربهم بالغداة والعشى يريدون وجهه ) الآية .

وقال خباب بن الأرت فى هذه الآية : « جاء الأقرع بن حابس وعيينة بن حصن فوجدا رسول الله صلى الله عليه وسلم مع صهيب وعمار وبلال وخباب قاعداً فى ناس من الضعفاء من المؤمنين فلما رأوهم حول النبى صلى الله عليه وسلم حقروهم فأتوه فخلوا به وقالوا إنا نريد أن تجعل لنا منك مجلساً تعرف لنا به العرب فضلنا فإن وفود العرب تأتيك فنستحيي أن ترانا مع هؤلاء الأعبد فإذا نحن جئناك فأقمهم عنك فإذا نحن فرغنا فاقعد معهم إن شئت قال :

نعم قالوا : فاكتب لنا عليك كتاباً قال : فدعا بصحيفة ودعاً علياً ليكتب ونحن قعود فى ناحية فنزل جبريل عليه السلام فقال : ( ولا تطرد الذين يدعون ربهم بالغداة والعشى يريدون وجهه ما عليك من حسابهم من شىء وما من حسابك عليهم من شىء فتطردهم فتكون من الظالمين ) ثم ذكر الأقرع بن حابس . وعيينة ابن حصن : فقال : ( وكذلك فتنا بعضهم ببعض ليقولوا أهؤلاء من الله عليهم من بيننا أليس الله بأعلم بالشاكرين ) ثم قال : ( وإذا جاءك الذين يؤمنون بآياتنا فقل سلام عليكم كتب ربكم على نفسه الرحمة ) قال : فدنونا منه حتى وضعنا ركبنا على ركبتيه وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يجلس معنا فإذا أراد أن يقوم قام وتركنا فأنزل الله عز وجل :( واصبر نفسك مع الذين يدعون ربهم بالغداة والعشى يريدون وجهه ولا تعد عيناك عنهم ) ولا تجالس الأشراف ( ولا تطع من أغفلنا قلبه عن ذكرنا ) يعنى عيينة . والأقرع قال خباب : فكنا نقعد مع النبى صلى الله عليه وسلم فإذا بلغنا الساعة التى يقوم قمنا وتركناه حتى يقوم » خرجه ابن ماجه وغيره .

وكان النبى صلى الله عليه وسلم يعود المرضى من مساكين أهل المدينة ويشيع جنائزهم، وكان لا يأنف أن يمشى مع الأرملة والمسكين حتى يقضى حاجتهما وعلى هذا الهدى كان أصحابه من بعده والتابعون لهم بإحسان .

وروى عن أبى هريرة قال : كان جعفر بن أبى طالب يحب المساكين ويجلس إليهم ويحدثهم ويحدثونه وكان النبي صلى الله عليه وسلم يكنيه أبا المساكين ، وفى رواية أنه كان يطعمهم وربما أخرج لهم عكة (١) فيها العسل فشقوها ولعقوها ، وكانت زينب بنت خزيمة أم المؤمنين تسمى أم المساكين لكثرة إحسانها إليهم وتوفيت فى حياة النبي صلى الله عليه وسلم ،وقال ضرار بن مرة فى وصف على بن أبى طالب فى أيام خلافته : كان يعظم أهل الدين ويحب المساكين ، ومر ابنه الحسن رضى الله عنهما على مساكين يأكلون فدعوه فأجابهم وأكل معهم وتلا: ( إنه لا يحب المستكبرين ) ثم دعاهم إلى منزله فأطعمهم وأكرمهم ، وكان ابن عمر لا يأكل غالباً إلا مع المساكين وكان يقول لعل بعض هؤلاء أن يكون ملكاً يوم القيامة ، وجاء مسكين أعمى إلى ابن مسعود وقد ازدحم الناس عنده فناداه يا أبا عبد الرحمن آويت أرباب الخز واليمنية وأقصيتنى لأجل أنى مسكين فقال له:أدن‌منى فلم يزل يدنيه حتى أجلسه إلى جانبه أو بقربه ، وكان مطرف بن عبد الله يلبس الثياب الحسنة ثم يأتى المساكين ويجالسهم ، وكان سفيان الثورى يعظم المساكين ويجفو أهل الدنيا فكان الفقراء فى مجلسه هم الأغنياء والأغنياء هم الفقراء ، وقال سليمان التيمى : كنا إذا طلبنا علية أصحابنا وجدناهم عند الفقراء والمساكين .

---

(١) هى بضم العين المهملة وتشديد الكاف المفتوحة - وعاء من جلد مستدير يختص بالسمن والعسل وهو بالسمن أخص .

وقال الفضيل : من أراد عز الآخرة فليكن مجلسه مع المساكين، ومن فضائل المساكين أنهم أكثر أهل الجنة كما قال النبي صلى الله عليه وسلم : « قمت على باب الجنة فإذا عامة من دخلها المساكين » وقال صلى الله عليه وسلم : « تحاجت الجنة والنار فقالت الجنة لا يدخلني إلا الضعفاء والمساكين » .

وسئل النبي صلى الله عليه وسلم عن أهل الجنة فقال : « كل ضعيف مستضعف » وهم أول الناس دخولا الجنة كما صح عنه صلى الله عليه وسلم : « أن الفقراء يسبقون الأغنياء إلى الجنة بأربعين عاماً — وفى رواة — أنهم يدخلون الجنة بنصف يوم وهو خمسمائة سنة » وهم أول الناس إجازة على الصراط ، كما صح عنه صلى الله عليه وسلم : « أنه سئل من أول الناس إجازة على الصراط فقال : « فقراء المهاجرين » وهم أول الناس وروداً على الحوض كما قال صلى الله عليه وسلم : « أول الناس وروداً عليه فقراء المهاجرين الدنسة رءوسهم الشعثة ثيابهم الذين لا ينكحون المتنعمات ولا ولا تفتح لهم السدد » (١) وهم أتباع الرسل كما أخبر الله تعالى عن

(١) السدد جمع السدة وهى الباب أى لا تفتح لهم الأبواب لاحتقار الناس لهم ظناً منهم أن الإنسان بزيه أو بلباسه أو بقيافته بل ليس الإنسان هذا الهيكل المحتوى على اللحم والدم والعصب والعظام لأنه يساويه فيه بقية الحيوان بل قد يزيد عليه جسامة وقوة كالفيل والأسد وإنما الإنسان بروحه تلك الجوهر اللطيف الذى يتمركز بهذا الهيكل الصورى فإنه الذى يستحق التعظيم والتبجيل أو الإهانة والتحقير بل لو أنصف من وقف على مبادئ علم النفس أن الإنسان عبارة عن مجموعة فضائل=

نوح عليه السلام أن قومه عيروه باتباع الضعفاء له فقالوا : ( أنؤمن لك واتبعك الأرذلون) وكذلك قال هرقل لأبي سفيان لما لما سأله عن النبي صلى الله عليه وسلم : وهل يتبعه أشراف الناس أم ضعفاؤهم ؟ فقال : بل ضعفاؤهم قال هرقل : هم أتباع الرسل وهم أفضل من الأغنياء عند كثير من العلماء أو أكثرهم ، وقد دل على ذلك أدلة كثيرة منها قول النبي صلى الله عليه وسلم حين مر به الغنى والمسكين فى المسجد : هذا — يعنى المسكين — خير من ملء الأرض مثل هذا — يعنى الغنى — وقد خرجه البخارى وغيره ومنهم من لو أقسم على الله لأبره، كما فى الصحيح عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال فى أهل الجنة : « كل ضعيف مستضعف لو أقسم على الله لأبره » وفى رواية: « أشعث ذو طمرين » وفى رواية أخرجها ابن ماجة « أنهم ملوك أهل الجنة » وفى الحديث المشهور: « رب أشعث أغبر ذى طمرين مدفوع بالأبواب لو أقسم على الله لأبره » خرجه الحاكم وغيره .

---

= حلت فى هذا الجسد وإنما الذى أنشأ ما نراه من الأعمال الشريرة فهى غلبة الجسد المادى على الروح ولذلك قال تعالى : ( ويحرم عليهم الخبائث ) كى لا يضعف سلطان الروح بغذاء الحرام وإلى ما قلناه أولا نستدل بحديث رواه أصحاب السنن . والطبرانى . والبيهقى عن الأسود بن سريع قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « كل مولود يولد على الفطرة حتى يعرب عنه لسانه فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه » اه فلا تثريب علينا بعد هذا إذا قلنا : إن الإنسان بحد ذاته مجموعة فضائل وكمالات .

رب ذى طمرين نضو　　يأمن العالم شره
لا يرى إلا غنياً　　وهو لا يملك ذره
ثم لو أقسم فى شىء　　على الله أبره

قال ابن مسعود : كونوا جدد القلوب خلقان الثياب سرج الليل مصابيح الظلام تعرفون فى أهل السماء وتخفون على أهل الأرض.

طوبى لعبد بحبل الله معتصمه　　على صراط سوى ثابت قدمه
رث اللباس جديد القلب مستتر　　فى الأرض مشتهر فوق السما وسمه
ما زال يستحقر الأولى بهمته　　حتى يرقى إلى الأخرى به هممه
فذاك أعظم من التاج متكئاً　　على النمارق محتفاً به خدمه

واعلم أن محبة المساكين لها فوائد كثيرة منها أنها توجب إخلاص العمل لله عز وجل لأن الإحسان إليهم لمحبتهم لا يكون إلا لله عز وجل ، لأن نفعهم فى الدنيا لا يرجى غالباً فأما من أحسن إليهم ليمدح بذلك فما أحسن إليهم حباً لهم بل حباً لأهل الدنيا وطلباً لمدحهم له بحب المساكين . ومنها أنها تزيل الكبر فإن المتكبر لا يرضى مجالسة المساكين كما سبق عن رؤساء قريش والأعراب ومن حذا حذوهم من هذه الأمة ممن تشبه بهم حتى إن بعض علماء السوء كان لا يشهد الصلاة فى جماعة خشية أن تزاحمه المساكين فى الصف ويمتنع بسبب هذا الكبر فيفوته خير كثير جداً ، فإن مجالس الذكر والعلم تقع فيها كثيراً مجالسة المساكين فإنهم أكثر هذه المجالس فيمتنع المتكبر من هذه المجالس بتكبره وربما كان المسموع منه الذكر والعلم من جملة المساكين فيأنف أهل الكبر من التردد إلى

مجلسه كذلك فيفوتهم خير كثير وقد أخبر الله تعالى عن المشركين أنهم قالوا : ( لولا نزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم ) يشيرون إلى عظماء مكة والطائف كعتبة بن ربيعة وأخيه شيبة ونحوهما من صناديد قريش وثقيف ذوى الأموال والشرف فيهم ممن كان أكثر مالا من محمد صلى الله عليه وسلم وأعظم رياسة عندهم (١) ورد عليهم سبحانه بأنه يقسم رحمته كما يشاء وأنه كما رفع درجات بعضهم على بعض فى الدنيا فكذلك يرفعها فى الآخرة بالنبوة والعلم والإيمان خير مما يجمعونه من الأموال التى تفنى فهو يخص بهذه الرحمة الدينية من يشاء ويرفعه على أهل النعم الدنيوية وقد خص محمد صلى الله عليه وسلم بما لم يشركه فيه غيره من هذه النعم كما قال تعالى له : ( وأنزل الله عليك الكتاب والحكمة وعلمك ما لم تكن تعلم وكان فضل الله عليك عظيما ) .

---

(١) لم يكن عتبة أعظم رئاسة عند قريش ومعاذ الله أن يكون ذلك ولا يوافق التاريخ نفسه على ما يدعيه المصنف فى هذه الكلمة البعيدة فإن بنى هاشم أشرف من الأمويين جاهلية وإسلاماً وإن مفاخرة هاشم مع أمية فجلا هاشم أمية إلى عسقلان وبقى منفياً عشر سنين ليست مجهولة ولا ننكر أن المؤلف أراد أن يبين منزلة الفقير وعلوها فقدح فى هذا النسب ونسى أنه صلى الله عليه وسلم حفيد عبد المطلب شيخ قريش على الإطلاق ولذا كلفت قريش النبى صلى الله عليه وسلم بواسطة أبى طالب أن يسودوه ويعدل عن شتم آلهتهم فإذا لم يقولوا لولا نزل إلا عناداً . روى مسلم فى صحيحه ، والترمذى فى سننه عن واثلة بن الأسقع قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إن الله اصطفى كنانة من ولد إسماعيل واصطفى قريشاً من كنانة واصطفى من قريش بنى هاشم واصطفانى من بنى هاشم » .

وقد كان على بن الحسين يجلس فى مجلس زيد بن أسلم فيعاتب على ذلك فيقول : إنما يجلس المرء حيث يكون له فيه نفع أو كما قال، يشير إلى أنه ينتفع بسماع ما يسمعه من العلم والحكمة ، وزيد ابن أسلم أبوه مولى لعمر ، وعلى بن الحسين سيد بنى هاشم وشريفهم .

ولما اجتمع الزهرى . وأبو حازم الزاهد بالمدينة عند بعض بنى أمية — لما حج — وسمع الزهرى كلام أبى حازم وحكمته أعجبه ذلك وقال : هو جارى منذ كذا وكذا وما جالسته ولا عرفت أن هذا عنده فقال له أبو حازم : أجل إنى من المساكين ولو كنت من الأغنياء لعرفتنى فوبخه بذلك ، وفى رواية عنه أنه قال له لو أحببت الله أحببتنى ولكنك نسيت الله فنسيتنى ، يشير إلى أن من أحب الله تعالى أحب المساكين من أهل العلم والحكمة لأجل محبته لله تعالى ومن غفل عن الله تعالى غفل عن أوليائه من المساكين فلم يرفع لهم رأساً ولم ينتفع بما اختصهم الله عز وجل به من الحكمة والعلوم النافعة التى لا توجد عند غيرهم من أهل الدنيا .

وقد كان علماء السلف يأخذون العلم عن أهله والغالب عليهم المسكنة وعدم المال والرفعة فى الدنيا ، ويدعون أهل الرياسات والولايات فلا يأخذون عنهم ما عندهم من العلم بالكلية . ومنها أنه يوجب صلاح القلب وخشوعه ، وفى المسند عن أبى هريرة أن رجلا شكى إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم قسوة قلبه فقال له :

« إن أحببت أن يلين قلبك فأطعم المسكين وامسح رأس اليتيم » .
ومنها مجالسة المساكين توجب رضا من يجالسهم برزق الله عز وجل وتعظم عنده نعمة الله عز وجل عليه بنظره فى الدنيا إلى من دونه ومجالسة الأغنياء توجب التسخط بالرزق ومد العين إلى زينتهم وما هم فيه، وقد نهى الله عز وجل نبيه صلى الله عليه وسلم عن ذلك فقال تعالى : ( ولا تمدن عينيك إلى ما متعنا به أزواجاً منهم زهرة الحياة الدنيا لنفتنهم فيه ورزق ربك خير وأبقى ) وقال النبي صلى الله عليه وسلم : « انظروا إلى ما دونكم ولا تنظروا إلى من فوقكم فإنه أجدر أن لا تزدروا نعمة الله عليكم » قال أبو ذر : أوصانى رسول الله صلى الله عليه وسلم أن أنظر إلى من دونى ولا أنظر إلى من فوقى، وأوصانى أن أحب المساكين وأن أدنو منهم . وكان عون ابن عبد الله بن عتبة بن مسعود يجالس الأغنياء فلا يزال فى غم لأنه لا يزال يرى من هو أحسن منه لباساً ومركباً ومسكناً وطعاماً فتركهم وجالس المساكين فاستراح من ذلك . وقد روى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه نهى عائشة عن مخالطة الأغنياء . وقال عمر : إياكم والدخول على أهل السعة فإنه مسخطة للرزق ، واعلم أن المسكين إذا أطلق يراد به غالباً من لا مال له يكفيه فإن الحاجة توجب السكون والتواضع بخلاف الغنى فإنه يوجب الطغيان ولهذا ذم الفقير المختال وعظم ذنبه لأنه عصى بما ينافى فقره وهو الاختيال والزهو والكبر ، ولما كان المسكين عند الإطلاق لا ينصرف إلا إلى من لا كفاية له من المال ، وصى الله تعالى بإيثار

المساكين وإطعامهم الطعام ومدح من يطعمهم وذم من لا يحض على إطعامهم وجعل لهم حقاً فى أموال الصدقات والفىء وخمس الغنائم وحضور قسمة الأموال .

وهؤلاء المساكين على قسمين ، أحدهما من هو محتاج فى الباطن وقد أظهر حاجته للناس ، والثانى من يكتم حاجته ويظهر للناس أنه غنى فهذا أشرف القسمين ، وقد مدح الله عز وجل هذا فى قوله تعالى : ( للفقراء الذين أحصروا فى سبيل الله لا يستطيعون ضرباً فى الأرض يحسبهم الجاهل أغنياء من التعفف تعرفهم بسيماهم لا يسألون الناس إلحافاً ) وقال النبى صلى الله عليه وسلم : « ليس المسكين بهذا الطواف الذى ترده اللقمة واللقمتان والتمرة والتمرتان ولكن المسكين من لا يجد ما يغنيه ولا يفطن له فيتصدق عليه » وقال بعضهم : هذا المحروم المذكور فى قوله عز وجل : ( للسائل والمحروم ) .

فأخبر النبى صلى الله عليه وسلم أن من كتم حاجته فلم يفطن له أحق باسم المسكين من الذى أظهر حاجته بالسؤال وأنه أحق بالبر منه وهذا يدل على أنهم كانوا لا يعرفون من المساكين إلا من أظهر حاجته بالسؤال ، وبهذا فرق طائفة من العلماء بين الفقير والمسكين فقالوا : من أظهر حاجته فهو مسكين ومن كتمها فهو فقير ، وفى كلام الإمام أحمد إيماء إلى ذلك وإن كان المشهور عنه أن

التفريق بينهما بكثرة الحاجة وقلتها كقول كثير من الفقهاء وهذا حيث جمع بين ذكر الفقير والمسكين كما فى آية الصدقات فأما إذا أفرد أحد الاسمين دخل فيه الآخر عند الأكثرين ، وقد كان كثير من السلف يكتم حاجته ويظهر الغنى تعففاً وتكرماً ، منهم إبراهيم النخعى كان يلبس ثياباً حسناء ويخرج إلى الناس وهم يرون أنه تحل له الميته من الحاجة .

كان بعض الصالحين يلبس الثياب الجميلة وفى كمه مفتاح دار كبيرة ولا مأوى له إلا المساجد ، وكان آخر لا يلبس جبة فى الشتاء لفقره ويقول بى علة تمنعنى من لبس المحشو وإنما يعنى بها الفقر — يقول الشاعر :

إن الكريم ليخفى عنك عسرته  حتى تراه غنياً وهو مجهود

وكان بعكس هؤلاء من يلبس ثياب المساكين مع الغنى تواضعاً لله عز وجل وبعداً من الكبر كما كان يفعله الخلفاء الراشدون الأربعة وبعدهم عمر بن عبد العزيز ، وكذلك كان جماعة من الصحابة منهم عبد الله بن عمر وعبد الله بن عمرو بن العاص وغيرهما رضى الله عنهم ، وروى أن أبا بكر الصديق رضى الله عنه كان ينشد :

إذا أردت شريف الناس كلهم  فانظر إلى ملك فى زى مسكين
ذاك الذى حسنت فى الناس سيرته  وذاك يصلح للدنيا وللدين

وكان علي رضي الله عنه يعاتب على لباسه فيقول : هو أبعد عن الكبر وأجدر أن يقتدى بي المسلم ، وعوتب عمر بن عبد العزيز على ذلك فقال : إن أفضل القصد عند الجدة يعني أفضل ما اقتصد الرجل في لباسه مع قدرته ووجدانه .

وفي سنن أبي داود . وغيره عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : « البذاذة من الإيمان » يعني التقشف . وفي الترمذي عن النبي صلى الله عليه وسلم : « من ترك اللباس تواضعاً لله عز وجل وهو يقدر عليه دعاه الله يوم القيامة حتى يخيره من أي حلل الجنة شاء يلبسها » وخرجه أبو داود من وجه آخر ولفظه : « من ترك ثوب جمال وهو يقدر عليه –أحسبه قال تواضعاً– كساه الله حلة الكرامة. »

وإنما يذم من ترك اللباس مع قدرته عليه بخلا على نفسه أو كتماناً لنعمة الله عز وجل . وفي هذا جاء الحديث المشهور : « إن الله إذا أنعم على عبد نعمة أحب أن يرى أثر نعمته على عبده » ومن لبس لباساً حسناً إظهاراً لنعمة الله ولم يفعله اختيالا كان حسناً . وكان كثير من الصحابة والتابعين يلبسون لباساً حسناً ، منهم ابن عباس . والحسن البصري ، وقد صح عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه سئل عن الرجل يحب أن يكون لباسه حسناً ونعله حسناً قال : « ليس ذلك بالكبر إنما الكبر بطر الحق وغمط الناس » ، يعني التكبر عن قبول الحق والانقياد له واحتقار الناس وازدرائهم ، فهذا هو الكبر . وأما مجرد اللباس الحسن الخالي عن الخيلاء فليس بكبر ، واحتقار الناس مع رثاثة اللباس كبر .

وقد روى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه كان ماشياً فى طريق وهناك أمة سوداء ، فقال لها رجل : الطريق الطريق للنبي صلى الله عليه وسلم . فقالت : الطريق يمنة ويسرة . فقال النبي صلى الله عليه وسلم : « دعوها فإنها جبارة » أخرجه النسائى وغيره . وفى رواية الطبرانى وغيره قالوا : يارسول الله إنها – يعنى مسكينة– قال : إن ذاك فى قلبها – يعنى أن الكبر فى قلبها – وإن كان لباسها لباس المساكين . وقال الحسن : إن قوماً جعلوا التواضع فى لباسهم والكبر فى صدورهم . إن أحدهم أشد كبراً بمدرعته من صاحب السرير بسريره وصاحب المنبر بمنبره . قال أحمد ابن أبى الحوارى : قال لى سليمان بن أبى سليمان وكان يعدل أبيه : أى شىء أرادوا بثياب الصوف ؟ قلت : التواضع . قال : وما يتكبر أحدهم إلا إذا لبس الصوف ؟ وقال أبو سليمان : يكون ظاهرك قطنياً وباطنك صوفياً . وقال أبو الحسين بن بشار : صوف قلبك والبس القوهى على القوهى – يعنى رفيع الثياب – فمتى أظهر الإنسان لباس المساكين لدعوى الصلاح ليشتهر بذلك عند الناس كان ذلك كبراً ورياء . ومن هنا ترك كثير من السلف المخلصين اللباس المختص بالفقراء والصالحين وقالوا : إنه شهرة ، ولما قدم سيار أبو الحكم البصرة لزيارة مالك بن دينار لبس ثياباً حسنة ثم دخل المسجد فصلى صلاة حسنة فرآه مالك ولم يعرفه ، فقال له : يا شيخ إنى أرغب بك عن هذه الثياب مع هذه الصلاة . فقال له : يامالك ثيابى هذه تضعنى عندك أم ترفعنى ؟ . قال :

بل تضعك . فقال : نعم الثوب ثوب يضع صاحبه عند الناس ، ولكن انظر يامالك لعل ثوبيك هذين – يعنى الصوف – أنزلاك عند الناس ما لم ينزلاك من الله . فبكى مالك وقام إليه واعتنقه وقال له : أنشدك الله أأنت سيار أبو الحكم ؟ قال : نعم . فلهذا كره من كره من السلف كابن سيرين وغيره لباس الصوف حيث صار شعار الزاهدين فيكون لباسه إشهاراً للنفس وإظهاراً للزهد . وأما النبي صلى الله عليه وسلم فكان يلبس ما وجد، فتارة يلبس لباس الأغنياء من حلل اليمن وثياب الشام ونحوها ، وتارة يلبس لباس المساكين فيلبس جبة من صوف أحياناً ، وأحياناً يتزر بعباءة ويهنأ إبل الصدقة بيده يعنى أنه يطليها بيده ويصلحها كما يفعل أرباب الإبل بها ، ولم يبعث الله نبياً من أهل الكبر وإنما يبعث من لا كبر عنده ولا يتكبر عن معالجة الأشياء التى يأنف منها المتكبرون كرعاية الإبل والغنم وإجارة نفسه عند الحاجة إلى الاكتساب، ومن أعطاه الله منهم ملكاً فإنه لم يزل دأبه التواضع لله عز وجل كداود وسليمان ومحمد صلى الله عليه وسلم تسليما كثيراً .

وقد يطلق اسم المسكين ويراد به من استكان قلبه لله عز وجل وانكسر له وتواضع لجلاله وكبريائه وعظمته وخشيته ومحبته ومهابته وعلى هذا المعنى حمل بعضهم الحديث المروى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : « اللهم أحيني مسكيناً وأمتني مسكيناً واحشرني فى زمرة المساكين » . أخرجه الترمذى من حديث أنس . وخرجه ابن ماجه من حديث ابن عباس ، وفى حمله على ذلك

نظر لأن فى تمام حديثهما ما يدل على أن المراد به المساكين من المال لأنه ذكر سبقهم الأغنياء إلى الجنة، مع أن فى إسناد الحديثين ضعفاً ، وقد خير النبي صلى الله عليه وسلم بين أن يكون نبياً ملكاً أو عبداً رسولا فأشار إليه جبريل أن تواضع . فقال : بل عبداً رسولا . وكان بعد ذلك لا يأكل متكئاً ويقول : « آكل كما يأكل العبد وأجلس كما يجلس العبد » . قال الحسن : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : فأعطانى الله لذلك أن جعلنى سيد ولد آدم وأول شافع وأول مشفع وأول من تنشق عنه الأرض ، وصح عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال : « إنما أنا عبد فقولوا عبد الله ورسوله » فأشرف أسمائه عبد الله ، ولهذا سمى بهذا الاسم فى القرآن فى أفخر مقاماته ، فلما حقق صلى الله عليه وسلم عبوديته لربه حصلت له السيادة على جميع الخلق ، كان كثير من العارفين يقول فى مناجاته لربه : كفى بى فخراً أنى لك عبد ، وكفى بى شرفاً أنك لى رب . وكان بعضهم يقول كلما ذكرت أنه ربى وأنا عبده حصل لى من السرور ما يصلح به بدنى :

شرف النفوس دخولها فى رقهم      والعبد يحوى الفخر بالمتملك

وكان أبو يزيد البسطامى ينشد :

يا ليتنى صرت شيئاً      من غير شىء أعد
أصبحت للكل مولى      لأننى لك عبد

فمن انكسر قلبه لله عز وجل واستكان وخشع وتواضع جبره الله عز وجل ، ورفعه بقدر ذلك . وفى الأثر المشهور أن الله عز وجل قال لموسى على نبينا وعليه أفضل الصلاة والسلام حين سأله أين أجدك ؟ قال : عند المنكسرة قلوبهم من أجلى فإنى أدنو منهم كل يوم باعاً ولولا ذلك لانهدموا . وروى عن عبد الله ابن سلام أنه فسره فقال : هم المنكسرة قلوبهم بحب الله عن حب غيره . وفى الحديث المشهور المرفوع : « إن الله تعالى إذا تجلى لشىء من خلقه خشع له ، فإذا تجلى لقلوب العارفين عظمة الله وجلاله وكبرياؤه اندكت قلوبهم من هيبته ، وخشعت وانكسرت من محبته ومخافته :

مساكين أهل الحب حتى قبورهم    عليها تراب الذل بين المقابر

فالمسكين فى الحقيقة من استكان قلبه لربه وخشع من خشيته ومحبته ولا يكون المسكين ممدوحاً بدون هذه الصفة ، فإن من لم يخشع قلبه مع فقره وحاجته فهو جبار كتلك الأمة السوداء التى قال فيها النبي صلى الله عليه وسلم إنها جبارة ، وهو إما عائل مستكبر أو فقير مختال، وكلاهما لا ينظر الله إليه يوم القيامة ، فالمؤمن من يستكين قلبه لربه ويخشع له ويتواضع ويظهر مسكنته وفاقته إليه فى الشدة والرخاء . أما فى حال الرخاء فإظهار الشكر وأما فى حال الشدة فإظهار الذل والعبودية والفاقة والحاجة إلى كشف الضر . قال تعالى : ( ولقد أخذناهم بالعذاب فما استكانوا

لربهم وما يتضرعون ) . فذم من لا يستكين لربه عند الشدة ، وكان النبي صلى الله عليه وسلم يخرج عند الاستسقاء متواضعاً متخشعاً متمسكناً . وحبس لمطرف بن عبد الله قريب له فلبس خلقان ثيابه وأخذ بيده قصبة وقال أتمسكن لربى لعله يشفعنى فيه ، ومما يشرع فيه المتمسكن لله عز وجل حال «الصلاة كما فى حديث الفضل بن عباس عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : الصلاة مثنى مثنى وتشهد فى كل ركعتين وتخشع وتضرع وتمسكن وتقنع يديك – يقول ترفعهما – وتقول يارب ثلاثاً فمن لم يفعل ذلك فهى خداج» ،خرجه الترمذى وغيره ، وكذلك يشرع إظهار المسكنة فى الدعاء ، خرج الطبرانى من حديث ابن عباس قال : رأيت النبي صلى الله عليه وسلم يدعو بعرفة ويداه إلى صدره كاستطعام المسكين . ومن حديثه أيضاً أن النبي صلى الله عليه وسلم قال فى دعائه عشية عرفة : أنا البائس الفقير المستغيث المستجير الوجل المشفق المقر المعترف بذنبه أسألك مسألة المسكين وأبتهل إليك ابتهال المذنب الذليل وأدعوك دعاء الخائف الضرير .

وكان بعض السلف يجلس بالليل مطرقاً رأسه ويمد يديه وهو ساكت كحال المسكين المستعطى . وقال طاوس : دخل على ابن الحسين الحجر ليلة فصلى فسمعته يقول فى سجوده : عبيدك بفنائك مسكينك بفنائك فقيرك بفنائك سائلك بفنائك . قال : طاوس : فحفظتهن فما دعوت بهن فى كرب إلا فرج عنى ، وكان بعض العباد قد حج ثمانين حجة على قدميه فبينما هو فى .

الطواف وهو يقول : ياحبيبى ياحبيبى ، فهتف هاتف ليس ترضى أن تكون مسكيناً حتى تكون حبيباً . فغشى عليه فكان بعد ذلك يقول : مسكينك مسكينك .

شعر لابن تيمية شيخ الإسلام رحمه الله :

أنا الفقير إلى رب السموات    أنا المستكين فى مجموع حالاتى
أنا الظلوم لنفسى وهى ظالمتى    والخير إن جاءها من عنده ياتى

قوله صلى الله عليه وسلم : « وأن تغفر لى وترحمنى » . المغفرة والرحمة يجمعان خير الآخرة كله لأن المغفرة ستر الذنب مع وقاية شره . وقد قيل إنه لا تجتمع المغفرة مع عقوبة الذنب حيث كانت المغفرة وقاية لشر الذنب وهذا لا يكون مع عقوبة عليه ، ولذلك سمى المغفر مغفرا لأنه يستر الرأس ويقيه الأذى ، وهذا بخلاف العفو فإنه يكون تارة قبل العقوبة وتارة بعدها . وأما الرحمة فهى دخول الجنة وعلو درجاتها وجميع ما فى الجنة من النعيم بالمخلوقات ، ومن رضى الله عز وجل وقربه ومشاهدته وزيارته فإنه من رحمة الله تعالى ، وفى الحديث الصحيح : « إن الله عز وجل يقول للجنة أنت رحمتى أرحم بك من أشاء من عبادى » . فكل ما فى الجنة فهو من رحمة الله عز وجل وإنما تنال برحمته لا بالعمل كما قال صلى الله عليه وسلم : « لن يدخل أحد منكم الجنة بعمله . قالوا : ولا أنت يا رسول الله ؟ قال : ولا أنا ، إلا أن يتغمدنى الله برحمته » .

قوله الله صلى عليه وسلم : « وإذا أردت بقوم فتنة فاقبضني إليك غير مفتون » . المقصود من هذا الدعاء سلامة العبد من فتن الدنيا مدة حياته ، فإن قدر الله عز وجل على عباده فتنة قبض عبده إليه قبل وقوعها ، وهذا من أهم الأدعية ، فإن المؤمن إذا عاش سليما من الفتن ثم قبضه الله تعالى إليه قبل وقوعها وحصول الناس فيها كان فى ذلك نجاة له من الشر كله . وقد أمر النبي صلى الله عليه وسلم أصحابه أن يتعوذوا بالله من الفتن ما ظهر منها وما بطن ، وفى حديث آخر : وجنبنا الفواحش والفتن ما ظهر منها وما بطن ، وكان يخص بعض الفتن العظيمة بالذكر وكان يتعوذ بالله فى صلاته من أربع ويأمر بالتعوذ منها : «أعوذ بالله من عذاب جهنم، ومن عذاب القبر ، ومن فتنة المحيا والممات ، ومن فتنة المسيح الدجال » . ففتنة المحيا تدخل فيها فتن الدين والدنيا كلها كالكفر والبدع

والفسوق والعصيان ، وفتنة الممات يدخل فيها سوء الخاتمة وفتنة الملكين فى القبر فإن الناس يفتنون فى قبورهم مثل أو قريباً من فتنة الدجال . ثم خص فتنة الدجال بالذكر لعظم موقعها فإنه لم يكن فى الدنيا فتنة قبل يوم القيامة أعظم منها، وكلما قرب الزمان من الساعة كثرت الفتن .

وفى حديث معاوية عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : « إنه لم يبق من الدنيا إلا بلاء وفتنة » . وأخبر النبي صلى الله عليه وسلم عن الفتن التى كقطع الليل المظلم يصبح الرجل فيها مؤمناً

ويمسى كافراً ويمسى مؤمناً ويصبح كافراً يبيع دينه بعرض من الدنيا ، وكان أول هذه الفتن ما حدث بعد عمر رضى الله عنه ونشأ من تلك الفتن قتل عثمان رضى الله عنه وما ترتب عليه من إراقة الدماء وتفرق القلوب وظهور فتن الدين كبدع الخوارج المارقين من الدين وإظهارهم ما أظهروا ، ثم ظهور بدع أهل القدر والرفض ونحوهم ، وهذه هى الفتن التى تموج كموج البحر المذكورة فى حديث حذيفة المشهور حين سأله عنها عمر ، وكان حذيفة رضى الله عنه من أكثر الناس سؤالا للنبى صلى الله عليه وسلم عن الفتن خوفاً من الوقوع فيها . ولما حضره الموت قال : حبيب جاء على فاقة لا أفلح من ندم الحمد لله الذى سبقت بى الفتنة قادتها وعلوجها . وكان موته قبل قتل عثمان بنحو من أربعين يوماً ، وقيل : بل مات بعد قتل عثمان وكان فى تلك الأيام رجل من الصحابة نائماً فأتاه آت فى منامه فقال له : قم فاسأل الله أن يعيذك من الفتنة التى أعاذ منها صالح عباده . فقام فتوضأ وصلى ثم اشتكى ومات بعد قليل . وقد روى عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال لرجل : « إذا مت أنا وأبو بكر وعمر وعثمان فإن استطعت أن تموت فمت » . وهذا إشارة إلى هذه الفتن التى وقعت بمقتل عثمان رضى الله عنه .

والدعاء بالموت خشية الفتنة فى الدين جائز ، وقد دعا به الصحابة رضى الله عنهم والصالحون بعدهم . ولما حج عمر رضى

الله عنه آخر حجة حجها استلقى بالأبطح ثم رفع يديه وقال : اللهم إنه قد كبر سنى ورق عظمى وانتشرت رعيتى فاقبضنى إليك غير مضيع ولا مفتون . ثم رجع إلى المدينة فما انسلخ الشهر حتى قتل رضى الله عنه .

ودعا على ربه أن يريحه من رعيته حيث سئم منهم فقتل عن قريب . ودعت زينب بنت جحش لما جاءها عطاء عمر من المال فاستكثرته وقالت : اللهم لا يدركنى عطاء لعمر بعدها فماتت قبل العطاء الثانى . ولما ضجر عمر بن عبد العزيز من رعيته حيث ثقل عليهم قيامه فيهم بالحق طلب من رجل كان معروفاً بإجابة الدعوة أن يدعو له بالموت فدعا له ولنفسه بالموت فماتا . ودعى طائفة من السلف الصالح إلى ولاية القضاء فاستمهلوا ثلاثة أيام فدعوا الله لأنفسهم بالموت فماتوا .

واطلع على حال بعض الصالحين ومعاملاته التى كانت سراً بينه وبين ربه فدعا الله أن يقبضه إليه خوفاً من فتنة الاشتهار فمات فإن الشهرة بالخير فتنة . كما جاء فى الحديث: كفى بالمرء فتنة أن يشار إليه بالأصابع فإنها فتنة . وكان سفيان الثورى يتمنى الموت كثيراً ، فسئل عن ذلك فقال : ما يدرينى لعلى أدخل فى بدعة ، لعلى أدخل فيما لا يحل لى ، لعلى أدخل فى فتنة أكون قد مت فسبقت هذا .

واعلم أن الإنسان لا يخلو من فتنة . قال ابن مسعود رضى الله

عنه : لا يقل أحدكم أعوذ بالله من الفتن ، ولكن ليقل أعوذ بالله من مضلات الفتن ، ثم تلا قوله تعالى : ( إنما أموالكم وأولادكم فتنة ) . يشير إلى أنه لا يستعاذ من المال والولد وهما فتنة ، وفى المسند أن النبي صلى الله عليه وسلم أمر أم سلمة أن تقول : « اللهم رب النبي محمد اغفر لى ذنبي واذهب غيظ قلبي وأجرنى من مضلات الفتن ما أبقيتنى » . وقد جعل النبى صلى الله عليه وسلم النساء والأموال فتنة ، ففى الصحيح عنه صلى الله عليه وسلم قال : « ما تركت بعدى فتنة أضر على الرجال من النساء » . وفيه أيضاً أنه صلى الله عليه وسلم قال : « والله ما الفقر أخشى عليكم ولكن أخشى أن تبسط عليكم الدنيا كما بسطت على من كان قبلكم فتنافسوها كما تنافسوها فتهلككم كما أهلكتهم » . وفى صحيح مسلم عنه صلى الله عليه وسلم قال : « اتقوا النساء فإن أول فتنة بنى إسرائيل كانت فى النساء »(١) . وفى الترمذى أنه صلى الله عليه وسلم

(١) أى والآخر كذلك فما من فتنة ألا والنساء فيها مدخل حتى أنه من الأمثال يقال لكل فتنة لا يعرف سببها . فتش عن المرأة لكن هذا لا يمنعنا أن نقول إن معظم الخير كذلك من النساء فالمسلمون لا يستطيعون أن ينكروا ما بذمتهم من الدين لخديجة رضى الله عنها ، ولكن لما كان الغالب على النساء الجهل فاعتبر حال الأكثر منهن وهو الفتنة للمرأة أمكنة لايصل إليها غيرها ولذلك حذر منها لا باعتبارها امرأة فإن الأم امرأة وقد جعلت الجنة تحت أقدام الأمهات فكل ما ورد فى ذم المرأة فهو محمول على المرأة الجاهلة التى لا دين لها ، ولا تغفل عن آية إن المسلمين والمسلمات إلخ الآية فقد قرن الرجل الكامل بالمرأة الكاملة ولم يفرق بينهما وإنما الأحاديث حكاية حال لغالب النساء الذين جنى عليهن أباؤهن حيث لم يعلموهن وهن صغار ما يجب لهن وعليهن شرعاً .

قال : « لكل أمة فتنة وفتنة أمتى المال ». وقد قال الله عز وجل : ( وجعلنا بعضكم لبعض فتنة أتصبرون وكان ربك بصيرا ) . فالرجل فتنة للمرأة ، والمرأة فتنة للرجل . والغنى فتنة للفقير ، والفقير فتنة للغنى . والفاجر فتنة للبر ، والبر فتنة للفاجر . والكافر فتنة للمؤمن ، والمؤمن فتنة للكافر . كما قال الله تعالى : ( وكذلك فتنا بعضهم ببعض ليقولوا أهؤلاء من الله عليهم من بيننا أليس الله بأعلم بالشاكرين ) . وقال عز وجل : ( ونبلوكم بالشر والخير فتنة ) فجعل كل ما يصيب الإنسان من شر أو خير فتنة ، يعنى أنه محنة يمتحن بها فإن أصيب بخير استحق به شكره ، وإن أصيب بسوء استحق به صبره . وفتنة السراء أشد من فتنة الضراء . قال عبد الرحمن بن عوف رضى الله عنه بلينا بفتنة الضراء فصبرنا وبلينا بفتنة السراء فلم نصبر(١) . قال بعضهم : فتنة الضراء يصبر عليها البر والفاجر ولا يصبر على فتنة السراء إلا صديق .

ولما ابتلى الإمام أحمد بفتنة الضراء صبر ولم يجزع وقال : كانت زيادة فى إيمانى ، فلما ابتلى بفتنة السراء جزع وتمنى الموت صباحاً ومساء وخشى أن يكون نقصاً فى دينه . ثم إن المؤمن

---

(١) كأنه يريد من فتنة الضراء الحروب والحاجة فصبروا عليها حتى غلبوا الدنيا وأصبحوا بعد العيلة أغنياء وفتنة السراء هى الفتن التى وقعت بعد وفاة الرسول صلوات الله وسلامه عليه وعلى آله حين ابتدأت تدب فهو وإن يكن توفى سنة ثنتين وثلاثين هجرية فى زمن عثمان إلا أنه شاهد المقدمات وحكم على النتيجة التى لا زال المسلمون يتجرعون مرارتها حتى الآن .

لابد أن يفتن بشيء من الفتن المؤلمة الشاقة عليه ليمتحن إيمانه كما قال الله تعالى: ( الٓم أحسب الناس أن يتركوا أن يقولوا آمنا وهم لا يفتنون. ولقد فتنا الذين من قبلهم فليعلمن الله الذين صدقوا وليعلمن الكاذبين ) . ولكن الله يلطف بعباده المؤمنين فى هذه الفتن ويصبرهم ويثيبهم فيها ولا يلقيهم فى فتنة مهلكة مضلة تذهب بدينهم بل تمر عليهم الفتن وهم منها فى عافية .

وأخرج ابن أبى الدنيا من حديث ابن عمر مرفوعاً أن لله ضنائن من عباده يغذوهم فى رحمته ويحييهم فى عافية ويتوفاهم إلى جنته أولئك الذين تمر عليهن الفتن كقطع الليل المظلم وهم منها فى عافية ، والفتن الصغار التى يبتلى بها المرء فى أهله وماله وولده وجاره تكفرها الطاعات من الصلاة والصيام والصدقة ، لذا جاء فى حديث حذيفة ، وروى عنه أنه سأل النبى صلى الله عليه وسلم قال: إن فى لسانى ذرباً وإن عامة ذلك على أهلى . فقال له : أين أنت من الاستغفار ؟

وأما الفتن المضلة التى يخشى منها فساد الدين فهى التى يستعاذ منها ويسأل الموت قبلها ، فمن مات قبل وقوعه فى شيء من هذه الفتن فقد حفظه الله تعالى وحماه ، وفى المسند عن محمود بن لبيد عن النبى صلى الله عليه وسلم قال : « اثنتان يكرههما ابن آدم: يكره الموت والموت خير للمؤمن من الفتن ، ويكره قلة المال وقلة المال أقل للحساب » .

قوله صلى الله عليه وسلم : « وأسألك حبك وحب من يحبك وحب العمل الذى بلغنى حبك » . هذا الدعاء يجمع كل خير، فإن الأفعال الاختيارية من العباد إنما تنشأ عن محبة وإرادة فإن كانت محبة الله ثابتة فى قلب العبد نشأت عنها حركات الجوارح فكانت بحسب ما يحبه الله ويرتضيه، فأحب ما يحبه الله عز وجل من الأعمال والأقوال كلها ففعل حينئذ الخيرات كلها وترك المنكرات كلها وأحب من يحبه الله من خلقه ، وهذا الدعاء كانت الأنبياء عليهم السلام يدعون به ، كما فى الترمذى عن النبى صلى الله عليه وسلم أن داود عليه السلام كان يقول :« اللهم إنى أسألك حبك وحب من يحبك وحب عمل يبلغنى إلى حبك ، اللهم اجعل حبك أحب لى من نفسى وأهلى ومن الماء البارد » . وفيه أيضاً أن النبى صلى الله عليه وسلم كان يدعو :« اللهم ارزقنى حبك وحب من يحبك وحب عمل يبلغنى إلى حبك ، اللهم ما رزقتنى مما أحب فاجعله قوة لى فيما تحب وما زويت عنى مما أحب فاجعله فراغاً لى فيما تحب » وفى حديث مرسل خرجه ابن أبى الدنيا وغيره أن النبى صلى الله عليه وسلم كان يقول : « اللهم اجعل حبك أحب الأشياء لى وخشيتك أخوف الأشياء عندى واقطع عنى حاجات الدنيا بالشوق إلى لقائك وإذا أقررت أعين أهل الدنيا من دنياهم فأقرر عينى فى عبادتك » . ومن كان همه طلب محبة الله عز وجل أعطاه الله فوق ما يريده من الدنيا تبعاً .

قال بعض السلف : لما توفى داود عليه السلام أرسل الله عز

وجل إلى سليمان عليه السلام : ألك حاجة تسألنى إياها ؟ فقال سليمان : أسأل الله أن يجعل قلبي يحبه كما كان قلب أبى داود يحبه، وأن يجعل قلبي يخشاه كما كان قلب أبى داود يخشاه ، فشكر الله له ذلك وأعطاه ملكاً لا ينبغي لأحد من بعده .

ومحبة الله تعالى على درجتين إحداهما واجبة وهى المحبة التى توجب للعبد محبة ما يحبه الله من الواجبات وكراهة ما يكرهه من المحرمات ، فإن المحبة التامة تقتضى الموافقة لمن يحبه فى محبة ما يحبه، وكراهة ما يكرهه خصوصاً فيما يحبه ويكرهه من المحب نفسه ، فلا تصح المحبة بدون فعل مايحبه المحبوب من محبيه، وكراهة ما يكرهه المحبوب من محبيه ، وسئل بعض العارفين عن المحبة فقال: الموافقة فى جميع الأحوال وأنشد :

ولو قلت لى مت مت سمعاً وطـــاعة
وقلت لداعى الموت أهلا ومرحبـــا

وأنشد بعضهم :

تعصى الإله وأنت تزعم حبه ... هذا لعمرى فى القياس فظيع
لو كان حبك صادقاً لأطعته ... إن المحب لمن يحب مطيع(١)

(١)وإن هذا عندنا خير برهان يوضح لنا حالة من يزعم الإسلام أو حبه فإذا كانت أعماله تخالف أقواله فلا شك أنه مخادع كذاب إذ لو تكلم عن عقيدة لعمل بها قال ولكنه أراد أن يستغل المغفلين من المسلمين فيزعم موالاتهم فى القول وهو لهم من أشد الأعداء وألدهم فى الأفعال ، ليت كل مسلم فهم معنى هذين البيتين وعمل بموجبهما كى يعرف أعداء الإسلام من أصحابه عندئذ تذهب الدسائس وتقل الفتن=

ومتى أخل العبد ببعض الواجبات أو ارتكب بعض المحرمات فمحبته لربه غير تامة ، فالواجب عليه المبادرة بالتوبة والاجتهاد فى تكميل المحبة المفضية لفعل الواجبات كلها واجتناب المحرمات كلها ، وهذا معنى قول النبي صلى الله عليه وسلم : « لا يزنى الزانى حين يزنى وهو مؤمن ، ولا يسرق السارق حين يسرق وهو مؤمن ، ولا يشرب الخمر حين يشربها وهو مؤمن » . فإن الإيمان الكامل يقتضى محبة ما يحبه الله وكراهة ما يكرهه الله عز وجل . والعمل بمقتضى ذلك فلا يرتكب أحد شيئاً من المحرمات أو يخل بشيء من الواجبات إلا لتقديم هوى النفس المقتضى لارتكاب ذلك على محبة الله تعالى المقتضية لخلافه .

( **الدرجة الثانية** ) من المحبة : درجة المقربين ، وهى أن يمتلىء القلب بمحبة الله تعالى حتى توجب له محبة النوافل والاجتهاد فيها وكراهة المكروهات والانكفاف عنها والرضا بالأقضية والأقدار المؤلمة للنفوس لصدورها عن المحبوب ، كما قال عامر بن قيس :

---

= وتضعف أو تفقد مداخلة الدخلاء أعداء الإسلام فالمحب ينبغى أن يطيع حبيبه وإلا فإنه كاذب فى حبه ومن ادعى خدمة الإسلام عليه أن يعمل أولا بأحكامه وإلا فإن إيمانه يكون مشكوكاً فإن القول المجرد لا دليل عليه إلا العمل الذى يجب أن يشهده الطابع ليتحد معه ويراه العاصى ليقتدى به ويثق بقوله فلم تنزل آية تتعلق بالإيمان إلا وقرنت بالعمل لأنه المؤيد له والبرهان والحجة التى تقام على صحته عندنا لانتظام الشئون وأما عند الله فالله أعلم به وهو الذى لا يخفى عليه خافية إنا لا نضيع أجر من أحسن عملا .

أحببت الله حباً هون على كل مصيبة ورضانى بكل بلية ، فلا أبالى مع حبي إياه على ما أصبحت ولا على ما أمسيت .

وقال عمر بن عبد العزيز : لما مات ولده الصالح : إن الله أحب قبضه وإنى أعوذ بالله أن يكون لى محبة فى شيء من الأمور يخالف محبة الله ، وكان يقول إذا أصبحت فمالى سرور إلا فى مواقع القضاء والقدر :

يا من يعز علينا أن نفارقهم وجداننا كل شيء بعدكم عدم
إن كان سركم ما قد بليت بـــه فما لجـــرح إذا أرضاكم ألم

وحسب سلطان الهوى أن يلذ فيه كل ما يؤلم .

كان عمار بن ياسر يقول : اللهم لو أعلم أنه أرضى لك عنى أن أرمى بنفسى من هذا الجبل فأتردى فأسقط فعلت ، ولو أعلم أنه أرضى لك أن أوقد ناراً عظيمة فأقع فيها فعلت ، ولو أعلم أنه أرضى لك عنى أن ألقى نفسى فى الماء فأغرق نفسى فعلت ، ولا أقول هذا إلا وأريد وجهك وأنا أرجو أن لا تخيبنى وأنا أريد وجهك . وقتل لبعض الصالحين ولدان فى الجهاد فعزاه الناس فيهما فبكى وقال : إنى ما أبكى لفقدهما ، إنما أبكانى كيف كان رضاهما عن الله حيث أخذتهما السيوف . وكان بعض العارفين يطوف بالبيت فتجمعت القرامطة على الناس فقتلوهم فى الطواف فوصلوا إليه فلم يقطع الطواف حتى سقط من ضرب السيوف صريعاً وأنشد :

والله لو حلف العشاق أنهم    موتى من الحب ما ماتوا وما حنثوا
ترى المحبين صرعى فى ديارهم    كفتية الكهف لا يدرون كم لبثوا

أقل ثمن المحبة بذل الروح :

بدم المحب يبـــاع وصلهم    فمن الذى يبتـــاع بالثمن

قال بعض العارفين : إن كنت تسمح ببذل روحك فى هذه الطريق وإلا فلا تشتغل بالترهات .

خاطر بروحك فى هـــوانا واسترح
إن شئت تحظى بالمحل الأعظـــم
لا يشغلنك شاغل عن وصلنـــا
وانهض على قدم الرجاء واقدم

ولما كانت محبة الله عز وجل لها لوازم وهى محبة ما يحبه الله عز وجل من الأشخاص والأعمال وكراهة ما يكرهه من ذلك سأل النبى صلى الله عليه وسلم الله تعالى مع محبته محبة شيئين آخرين ، أحدهما محبة من يحب ما يحبه الله تعالى ، فإن من أحب الله أحب أحباءه فيه ووالاهم وأبغض أعداءه وعاداهم كما قال النبى صلى الله عليه وسلم : « ثلاث من كن فيه وجد بهن حلاوة الإيمان : أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما ، وأن يحب المرء لا يحبه إلا لله ، وأن يكره أن يعود فى الكفر بعد إذ أنقذه الله منه كما يكره أن يلقى فى النار » . وأعظم من تجب محبته فى الله تعالى أنبياؤه ورسله وأعظمهم نبيه محمد صلى الله عليه وسلم الذى

افترض الله على الخلق كلهم متابعته وجعل متابعته علامة لصحة محبته ، كما قال تعالى : ( قل إن كنتم تحبون الله فاتبعونى يحببكم الله ويغفر لكم ذنوبكم ) . وتوعد من قدم محبة شيء من المخلوقين على محبته ومحبة رسوله صلى الله عليه وسلم ومحبة الجهاد فى سبيله فى قوله تعالى : ( قل إن كان آباؤكم وأبناؤكم وإخوانكم وأزواجكم وعشيرتكم وأموال اقترفتموها وتجارة تخشون كسادها ومساكن ترضونها أحب إليكم من الله ورسوله وجهاد فى سبيله فتربصوا ) . ووصف المحبين له باللين للمؤمنين والرأفة بهم والرحمة والمحبة لهم والشدة على الكافرين والبغض لهم والجهاد فى سبيله ، فقال تعالى : ( فسوف يأتى الله بقوم يحبهم ويحبونه أذلة على المؤمنين أعزة على الكافرين يجاهدون فى سبيل الله ولا يخافون لومة لائم ) الآية .

والثانى محبة ما يحبه الله تعالى من الأعمال وبها يبلغ إلى حبه وفى هذا إشارة إلى أن درجة المحبة لله تعالى إنما تنال بطاعته وبفعل ما يحبه ، فإذا امتثل العبد أوامر مولاه وفعل ما يحبه أحبه الله تعالى ورقاه لى درجة محبته كما فى الحديث الإلهى الذى خرجه البخارى : « وما تقرب لى عبدى بمثل أداء ما افترضت عليه ولا يزال عبدى يتقرب لى بالنوافل حتى أحبه » . فأفضل ما تستجلب به محبة الله عز وجل فعل الواجبات وترك المحرمات ، ولهذا جعل النبى صلى الله عليه وسلم من علامات وجدان حلاوة الإيمان أن تكره أن ترجع إلى الكفر كما تكره أن تلقى فى النار . وسئل ذو النون متى أحب ربى ؟

قال : إذا كان ما يكرهه عندك أمر من الصبر ، ثم بعد ذلك الاجتهاد فى نوافل الطاعات وترك دقائق المكروهات والمشتبهات . ومن أعظم ما تحصل به محبة الله تعالى من النوافل تلاوة القرآن وخصوصاً مع التدبر . قال ابن مسعود رضى الله عنه : لا يسأل أحدكم عن نفسه إلا القرآن ، فمن أحب القرآن فهو يحب الله ورسوله ولهذا قال النبي صلى الله عليه وسلم لمن قال : إنى أحب سورة قل هو الله أحد لأنها صفة الرحمن فقال : « أخبروه أن الله يحبه » . وقال أبو سلمة بن عبد الرحمن لما قدم النبي صلى الله عليه وسلم المدينة خطب فقال فى خطبته : إن أحسن الحديث كتاب الله قد أفلح من زينه الله فى قلبه ، وأدخله فى الإسلام بعد الكفر ، واختاره على ما سواه من الأحاديث أنه أحسن الحديث وأبلغه أحبوا من أحب الله وأحبوا الله من كل قلوبكم . وكان بعضهم يكثر من تلاوة القرآن ثم فتر عن ذلك فرأى فى المنام قائلا يقول له :

إن كنت تزعم حبى ... فلم جفوت كتابى
أما تدبرت ما فيـــه ... من لطيف عتابى

فاستيقظ وعاد إلى تلاوته .

ومن الأعمال التى توصل إلى محبة الله تعالى وهى من أعظم علامات المحبين كثرة ذكر الله عز وجل بالقلب واللسان . قال بعضهم : ما أدمن أحد ذكر الله إلا أفادته منه محبة الله تعالى .

وقال ذو النون : من أدمن ذكر الله قذف الله فى قلبه نزر الاشتياق إليه . وقال بعض التابعين : علامة حب الله كثرة ذكره فإنك لن تحب شيئاً إلا أكثرت ذكره . وقال فتح الموصلى : المحب لله لا يجد مع حب الله للدنيا لذة ولا يغفل عن ذكر الله طرفة عين ، المحبون إن نطقوا نطقوا بالذكر وإن سكتوا اشتغلوا بالفكر :

فإن نطقت فلم ألفظ بغـــيركم　　　وإن سكت فأنتم عند إضمارى

ومن علامات المحبين لله وهو مما يحصل به المحبة أيضاً حب الخلوة بمناجات الله تعالى وخصوصاً فى ظلمة الليل :

الليل لى ولأحبـــابى أسامرهم　　　قد اصطفيتهم كى يسمعوا ويعوا

قال الفضيل : يقول الله عز وجل « كذب من ادعى محبتى فإذا جنه الليل نام عنى ، أليس كل حبيب يحب الخلوة بحبيبه ، ها أنا مطلع على أحبابى إذا جنهم الليل جعلت أبصارهم فى قلوبهم ومثلت نفسى بين أعينهم فخاطبونى على المشاهدة وكلمونى على حضورى غدا أقر عين أحبابى فى جناتى » .

تنام عيناك وتشكو الهوى　　　لو كنت صباً لم تكن نائما

قلوب المحبين جمرة تحت فحمة الليل ، كلما هب عليها نسيم السحر التهبت ، وأنشد :

يذكرنى مر النسيم عهودكم　　　فأزداد شوقاً كلما هبت الريح
أرانى إذا ما أظلم الليل أشرقت　　　بقلبى من نار الغرام مصابيح

كلما جن الغاسق حن العاشق .

لو أنك أبصرت أهل الهوى　　إذا غابت الأنجم الطلع
فهـذا ينوح عـلى ذنبـه　　وهذا يصلى وذا يركـع

من لم يكن له مثل تقواهم لم يدر ما الذى أبكاهم ، ومن لم يشاهد جمال يوسف لم يدر ما الذى آلم قلب يعقوب ، وسئل السرى السقطى عن حاله فأنشد :

من لم يبت والحب حشو فؤاده　　لم يدر كيف تفتت الأكباد

أين رجال الليل ؟ أين ابن أدهم والفضيل ؟ ذهب الأبطال وبقى كل بطال ، يا من رضى من الزهد بالزى ، ومن الفقر بالاسم ، ومن التصوف بالصوف ومن التسبيح بالسبح أين فضل الفضيل ؟ أين جد الجنيد ؟ أين سر السرى ؟ أين بشر إبراهيم بن أدهم ؟ ويحك . . إن لم تقدر على معرفة معروف فاندب على ربع رابعة وأنشـد :

هاتيك ربوعهم وفيهـا كانوا　　بانوا عنها فليتهم ما بانوا
ناديت وفى حشاشتى نـيران　　يادار متى تحول السكان

يا من كان له قلب فانقلب . . يا من كان له وقت مع الله فذهب . . قيام الأسحار يستوحش لك . . صيام النهار يسأل عنك . . ليالى الوصال تعاتبك على انقطاعك .

تشاغلتم عنا بصحبة غـيرنا　　وأظهرتم الهجران ماهكذا كنا

وأقسمتم أن لا تحولوا عن الهوى فقدو حياة الحب حلتم وما حلنا
ليالى كنـــا نجتنى من ثمار كم فقلبى إلى تلك الليالى لقد حنا

خوانى مجالس الذكر شراب المحبين وترياق المذنبين ، قد علم كل أناس مشربهم ، مجالس الذكر مآتم الأحزان ، فهذا يبكى لذنوبه ، وهذا يندب لعيوبه ، وهذا يتأسف على فوات مطلوبه ، وهذا يتلهف لإعراض محبوبه ، وهذا يبوح بوجوده ، وهذا ينوح على فقده . . وأنشد :

ما أذكر عيشنا الذى قد سلفا إلا وجف القلب وكم قد وجفا
واهاً لزماننا الذى كان صفاً بل وأسفاً لفقـــده وأسفا

غيره

ياليتنـا بزمزم والحجـــــر يا جيرتنا قبيل يوم النفر
فهل يعود ما مضى من عمرى ما كنت أدرى ياليتنى لا أدرى

كأنى أرى الخلع قد خلعت على المقبولين كأنى أرى الملائكة تصافح التائبين فتعالوا نجتمع نبكى على المطرودين :

ما زلت دهراً للقا متعرضا ولطالما قد كنت عنا معرضا
جانبتنا دهراً فلما لم تجـــد عوضاً سوانا صرت تبكى محرضا
واحسرتاه عليك من متقلب حق الوبال عليه من سوء القضا
لو كنت من أحبابنا للزمتنا فكسيت من إحساننا خلع الرضا
لكن غمطت حقوقنا وتركتنا فلذاك ضاق عليك متسع الفضا

تم الكتاب والحمد لله أولا وآخراً

# فهرس

رقم الأيداع ٢٧٣٧ / ٨٢

مطابع سجل العرب